

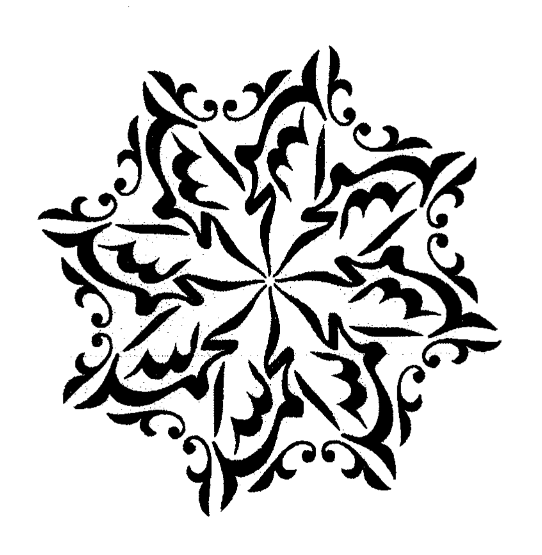
المختار من نوادر الأخبار

تأليف

محمد بن أحمد بن إسماعيل المقرئ الأنباري

تحقيق

د. خالد أحمد الملا السويدي



كتاب
المختار من نوادر الأخبار

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

العنوان: المختار من نوادر الأخبار

المؤلف: محمد بن أحمد بن اسماعيل الأبياري

تحقيق: د. خالد أحمد الملا السويدي

عدد الصفحات: ١٤٦

قياس الصفحة: ١٧×٢٤

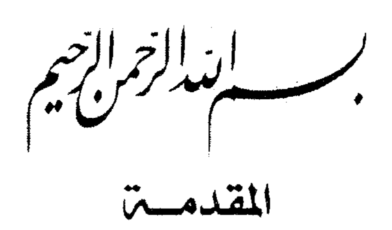
رقم الطبعة وتاريخها: الأولى / ٢٠١١

دار كنان للنشر والتوزيع

دمشق - شارع بغداد - عين الكرش - مقابل نقابة الفنانين

تلفاكس: ٦٣٢٤٧٤٢ - ٢٣٢٢٦٩٣ ١١ ٠٠٩٦٣

ص.ب: ١٠٦٩٧



المقدمـــة

من بين مخطوطات دار الكتب المصرية، اخترت كتاباً مخطوطاً هو (المختار من نوادر الأخبار) وهو من تأليف محمد بن أحمد بن مقرئ الأنباري أو الأبياري، حيث لم يستطع مفهرس مخطوطات دار الكتب أن يعرف أي شيء من مؤلف الكتاب، وبعد البحث الطويل لم أجد له ترجمة سوى في تاريخ الأدب العربي لبروكلمان.

مؤلف الكتاب[1]:

محمد بن أحمد بن مقرئ الأنباري (الإبياري).

شمس الدين أبو عبد الله، كان يؤلف بين عامي ٦٢٦هـ - ١٢٢٨م و٨٨٣ هـ- ١٤٧٨م وله الكتب التالية:

١- كتاب بلوغ الأرب في لطائف الأدب وله مخطوطة في ليدن رقم ٤٨٥، وأضاف إليه فيما بعد أحد عشر فصلاً.

٢- المختار في نوادر الأخبار، له مخطوطة في برلين ٨٤٤٣، ٤، وباريس ٣٤٩١/ ٢، ميونيخ ٦٣٩، كمبردج ٩١٧، ومنه مقتبسات في تحفة اللبيب للعوفي، ويوجد بعنوان (نزهة الأذن والبصيرة وحسن المفاكهة والمحاورة) في باريس رقم ٣٤٩٣.

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٦/ ٢١٥، كشف الظنون ٢/ ١٦٢٤.

وصف المخطوطة:

تقع المخطوطة الأولى وهي من مقتنيات جامعة الملك سعود في ٦١ ورقة في١٢٢ صفحة، وخطها معتاد ومقياس الصفحة ١٥×٢١سم، وعدد أسطر كل صفحة حوالي ١٩ سطراً ومخطوطة أخرى من مقتنيات جامعة الملك سعود جاءت ملونة وعدد صفحاتها ٦١ ق ومسطرتها ١٥×٢١ وعدد أسطر كل صفحة ١٩ سطراً وهي تكمل المخطوطة السابقة من باب الاستئناس بها.

عملنا في المخطوط:

بعد صف الكتاب، تم ضبط النص مع الأصل، وتم شرح بعض الكلمات الغريبة وتخريج الآيات القرآنية، وبعض الأشعار الواردة في النص، ثم تم فهرسة الكتاب فهرسة شملت الموضوعات والأعلام والأماكن وألفاظ الكتاب.

راجيا أن يكون هذا الكتاب في صفحاتنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم وعلى صحبه إلى يوم الدين، اللهم آمين.

الإمارات العربية المتحدة
أبو ظبي
١٦ شعبان ١٤٣٢هـ
١٧ تموز ٢٠١١م

د. خالد أحمد الملا السويدي

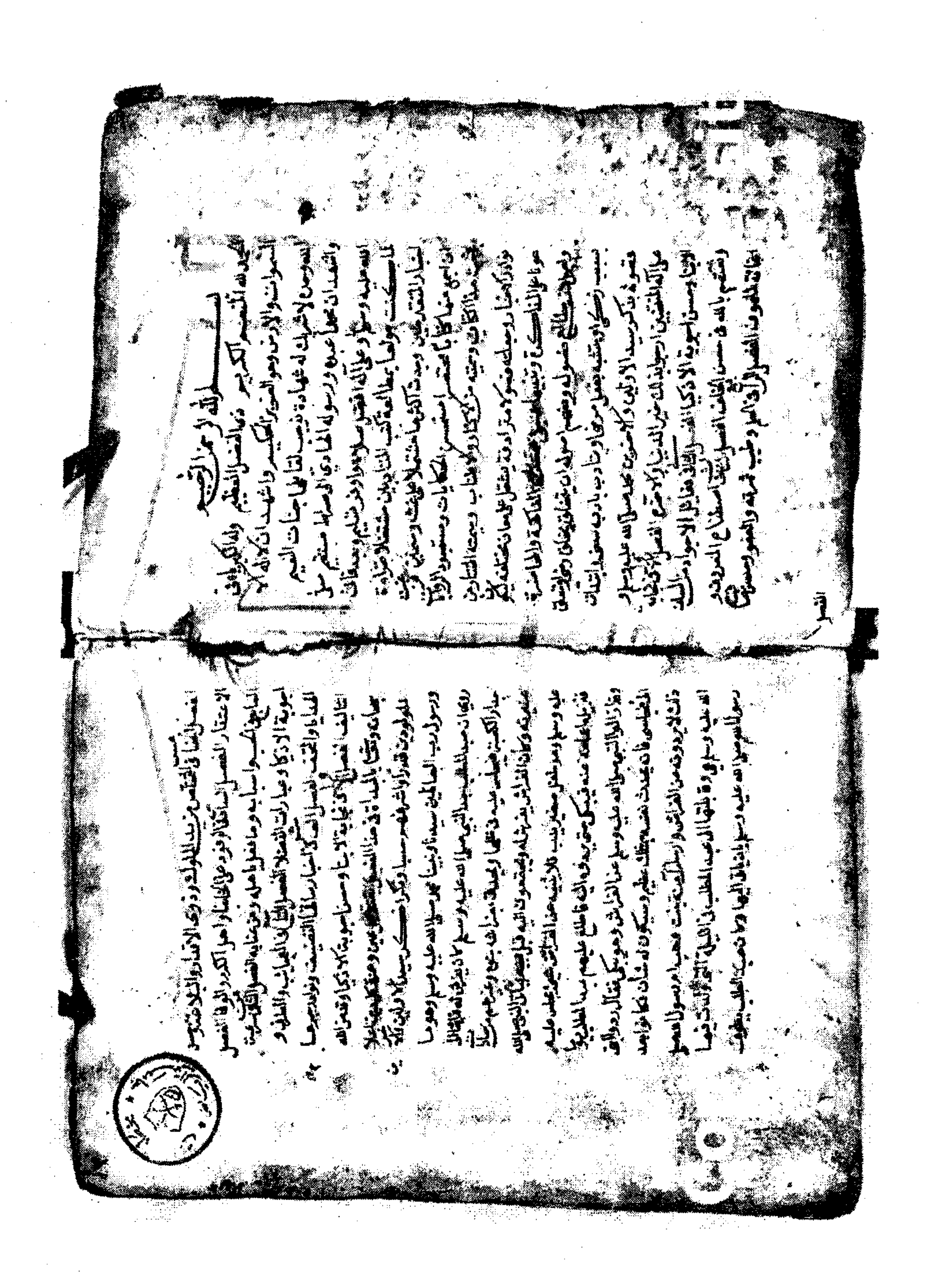


عنوان المخطوطة

يا ذا النون انت الموضع فقل يا كل شيئا من العنب والتين والرمان
فقلت من اين لك هذا في [illegible] قالت اجلس ولا تعترض
حتى انبئك بالذي قلت لك قال ذو النون فجلست ثم مضت الجارية
الى الشعاب فلم تغب ساعة ثم اقبلت وعلى يدها طبق عليها عنب
وتين ورمان فوضعته بين يدي وقالت لي كل يا ذا النون فوحق
حبيبي حتى اكل فاخذت وقلت في نفسي عبادة اني اتعبد منذ سبعين
سنة ما نلت هذه المنزلة وهذه الجارية منذ كم نالت هذه
المنزلة قال ذو النون فبكت الجارية فقلت لم تبكين قالت وكيف
لا ابكي وقد اختلج في قلبك كذا وكذا فقلت سبحان الله ومن اعلمك
قالت يا ذا النون والله ما نلت هذه المنزلة الا بسببك لاني
اتيت الى مقام ابينا ابراهيم وصليت ركعتين وقلت الهي
بحرمة ذي النون لا تخجلني بين يديك فلم [illegible]
الا وهذا الطبق عن يميني واذا النداء يا رابعة خذي
هذا الطبق وانطلقي [illegible] عليه عنا فوالله
يا ذا النون ما نلت هذه المنزلة الا بسببك قال ذو النون
والتفت الى الجارية فلم ارها رضي الله عنها

على يد الفقير الى الله مولانه محمد بن احمد بن سعيد
ابن [illegible] ابن جعفر بن نجاه المقري الابياري عفا
الله عنه ولوالديه ولجميع المسلمين
وذلك في ثاني عشر شهر ذي الحجة
سنة احدى وتسعين
والحمد لله وحده

الصفحة الأخيرة من المخطوطة الثانية



الصفحة الأولى والثانية من المخطوطة

الصفحة الأخيرة من المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم

النص المحقق

* الحمد لله المنعم الكريم ذي الفضل العظيم، وله الكبرياء في السموات، والأرض، وهو العزيز الحكيم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توجب لقائلها جنات النعيم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الهادي إلى صراط مستقيم (ﷺ)، وعلى آله أفضل صلاة، وأوفر تسليم.

* فإني لما كنت مولعاً بمطالعة كتب المتأدبين مشتغلاً بقراءة أخبار المتقدمين وجدت أكثرها مشتملاً على غث وسمين فرغبت أن أجمع منها كتاباً مختصراً مستحسن الحكايات ومستجود الروايات فجمعت هذا الكتاب وحميته من الإكثار، والإطناب وسميته (المختار من نوادر الأخبار)

* وجعلته فصولاً مترادفة يشتمل على معان مختلفة ليكون عوناً على المذاكرة وتنبيهاً على حسن المفاكهة، والمحاضرة، ولعل من يطالع فصوله، ويفهم أصوله أن يتخلق بخلق رضي، أو يتعلق بسبب زكي، أو يشتبه بفعل مرضي، أو يتأدب بأدب سَنِي وابتدأت فصوله بذكر سيد الأولين، والآخرين محمد (ﷺ)، وعلى آله المتجبين أرجو بذلك خير الدنيا، والآخرة.

* **الفصل الأول**: في نجابة الأبناء وحسن أجوبة الأذكياء.

* **الفصل الثاني**: فعائل الأجواد من السلف وثقتهم بالله في حسن الخلف.

* **الفصل الثالث**: في اصطناع المعروف و إغاثة الملهوف.

* **الفصل الرابع**: في الحِلم وطيب ثمرته، والعفو وحسن مضاعفته / ١/

* **الفصل الخامس**: في التخليص من يد الملوك وذي الأقدار، والبلاغة وحسن الاعتذار.

* **الفصل السادس**: في الوفود على الخلفاء، وأهل الكرم، والوفاء.

* **الفصل السابع**: في الحب، وأسبابه، وما فعل بأهله، ومن عنا به.

* **الفصل الثامن**: في سرعة أجوبة الأذكياء وعبارات الفضلاء.

* **الفصل التاسع**: في العجائب، والطُّرف، والهدايا، والتحف.

* **الفصل العاشر**: في أخبار ساقها التصنيف ونوادر جرها التأليف.



الفَصْلُ الأَوَّلُ

في نجابة الأبناء وحسن أجوبة الأذكياء

* وقد مَنَّ الله سبحانه وتعالى بالبداءة في هذا الفصل بقرة كل عين وعز كل دين أعلا المولودين قدراً، وأشرفهم حسباً وذكراً سيد الأولين، والآخرين، ورسول رب العالمين سيدنا ونبينا محمد (ﷺ).

* وهو ما روي أن عبد المطلب جد النبي (ﷺ) كان يفرش له فراشاً إلى جدار الكعبة فيجلس عليه في ظلها، ويحدق بفراشه بنوه وغيرهم من سادات عشيرته، وكان الفراش يفرش له، ويجتمعون إليه قبل مجيء النبي (ﷺ)، وهو طفل صغير يدب فلا يثنيه عن الفراش شيء يجلس عليه فينزله أعمامه عنه فيبكي حتى يردفوه إليه.

* فاطلع عليهم عبد المطلب يوماً، وقد أزالوا النبي (ﷺ) عن الفراش، وهو يبكي، فقال ردوا ابني إلى مجلسي فإنه يحدث نفسه بملك عظيم وسيكون له شأن.

* فكانوا بعد ذلك لا يردونه عن الفراش، وأرسل آمنة بنت وهب أم رسول الله (ﷺ) هي وقابلتها إلى عبد المطلب في الليلة التي وَلَدَتْ فيها رسول الله (ﷺ) بأن يأتي إليها، وكان عبد المطلب يطوف / ٢/ بالبيت تلك الساعة فأتاها فقالت له يا أبا الحارث قد ولد لك الليلة مولود أمره عجيب فذعر عبد المطلب، وقال أليس هو بشراً سوياً.

* قالت: بلى، ولكن سقط حين خرج خاراً كالرجل الساجد، ثم رفع رأسه، وإصبعه نحو السماء حين لا تقل رقبة رأساً، ولا ذراع كفاً وخرج معه نور ملأ البيت وصارت النجوم تدنو حتى ظننا أنّها تسقط علينا.

* قالت آمنة يا أبا الحارث إنه لما اشتد بي المخاض كثرت علي الأيدي في البيت، وحين خرج هذا المولود إلى الدنيا خرج معه نور رأيت فيه بُصرى من أرض الشام.

* ولقد قيل لي في منامي قبل أن ألد إنك ستلدين سيد هذه الأمة، فإذا ولدتيه فسميه محمداً، وإذا وقع على الأرض فقولي أعيذه بالواحد من شر كل حاسد.

* فقال عبد المطلب: أخرجي إلي ابني فلقد كنت الساعة أطوف بالبيت فرأيته مال حتى قلت أنه سقط على إثم إنه استوى منتصباً وسمعت من تلقائه قائلاً يقول الآن طهرني ربي وسقط هبل على رأسه حتى جعلت أمسح عيني، وأقول إنما أنا نائم فأخرجته فقبله وانطلق به إلى الكعبة فطاف بها أسبوعاً، ثم وقف به عند الملتزم، وجعل يقول:

يَا رَبَّ كُلِّ طَائفٍ وَحَاصِدْ ... وَرَبَّ كُلِّ غَائِبٍ وَشَاهِدْ

أَدعوكَ، والليلُ طَفوحٌ وراكدْ ... لا هَمَّ فاصرفْ عَنْهُ كَيْدَ الكايدْ

وَاخصمْ بِهِ كُلَّ عَنودٍ ضَاهِدِ ... وأغثهُ ما خَلَّدَ الأوابدْ

في سُؤدَدِ رَأسٍ وَجَدٍّ صَاعدْ/ ٣/

* وقال ابن عباس (رضي الله عنه): لما ظفر سَيف بن ذي يزن بالحبشة أتته وفود العرب خطباؤها، وأشرافها وشعراؤها ليشكروه على الأخذ بثأره، ويهنئوه بما سار إليه من الملك وقدم إليه وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هشام، وأمية بن عبد شمس فاستأذنوا عليه، وهو في رأس قصر يقال له غمدان بصنعاء، اليمن فأذن لهم فدخلوا عليه، فإذا هو مضمخ بالمسك وعليه بُردان، والتاج عليه يعني على رأسه وسيفه بين يديه وملوك حمير عن يمينه وشماله فاستأذنه عبد المطلب في الكلام، فقال إن كنت من يتكلم بين يدي الملوك فقد أذناً لك، فقال عبد المطلب: إن الله قد أحلك أيها الملك محلاً باذخاً منيعاً شامخاً، وأنبتك ثباتاً طابت أرومته وعزت جرثومته وثبت أصله وبسق فرعه بأحسن معدن، وأطيب موطن.

* فأنت أبيت اللعن ملك العرب الذي له انقاد وعمودها الذي عليه الاعتماد وسائسها الذي بيده القياد سلفك خير سلف، وأنت لتأمنهم خير خلف لن يجهل منهم

سلفه، ولا يملك من أنت خلفه.

* نحن أيها الملك من حرم الله وسدنة بيته، فقال الملك من أنت أيها المتكلم؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم قال ابن أخينا قال نعم فأقبل عليه من بين القوم، وقال مرحباً، وأهلاً وناقة ورحلاً ومستباحاً سهلاً ومحلاً ونجلاً يعطى عطاءً جزيلاً.

* قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم أنتم أهل الليل، والنهار لكم الكرامة إذا قمتم، والحياء إذا طبتم، ثم أمر بهم على دار الضيافة، وأجرى عليهم الأنزال فأقاموا شهراً لا يؤذن لهم، ولا يصلون إليه / ٤/ .

* ثم إنه انتبه لهم انتباهةً فأرسل إلى عبد المطلب خاصة فأتاه فأخلاه، ثم قال له إني مُفضٍ إليك من سري وعلني فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه بأمره إني أجد في الكتاب الناطق، والعلم الصادق الذي اخترناه لأنفسنا واستحجبناه دون غيرنا خبراً عظيماً وخطراً جسيماً فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة، وهو للناس كافة ولقومك عامة ولك خاصة قال عبد المطلب أبيت اللعن أن بخيرها آتٍ به وافد، ولولا هيبة الملك، وإجلاله لسألته من كشف بشارته إياي ما ازداد به سروراً.

* فقال الملك: هذا حينه الذي يولد فيه اسمه محمد خدلج الساقين أنجل العينين في عينه علامة وكتفه علامة أبيض، كأنَّ وجهه فلقة قمر يموت أبوه، وأمه، ويكفله جده وعمه، والله باعثه جهاراً وجاعلاً له منا أنصاراً يعز بهم أولياءه، ويذل بهم أعداءه يكسر الأوثان، ويعبد الرحمن، ويخمد النيران، ويزجر الشيطان.

* قوله فصل وحكمه عدل يأمر بالمعروف، ويفعله، وينهى عن المنكر، ويبطله.

* فقال عبد المطلب عَزَّ جَدُّك وعلا كعبك وطال عمرك هل الملك ساري يا فصاح فقد أوضح لي بعض الإيضاح، فقال له الملك: والبيت ذي الحجب، والعلامات على النصب إنك يا عبد المطلب لجده غير كذب قال: فَخَرَّ عبد المطلب ساجداً، ثم رفع رأسه، فقال له الملك طاب صدرك وعلا أمرك وبلغك أملك في عقبك هل أَحْسَسْتَ بشيء مما ذكرت لك؟ قال نعم قال كان لي ابن كنت عليه شفيقاً وبه رفيقاً زوجته كريمة

من أكرام قومي، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف فجاءت / ٥/ بغلام سميته محمداً خدلج الساقين أنجل العينين بين كتفيه شامة فيه كلما ذكر الملك من علامات مات أبوه أمه، وأبوه وكفلته أنا وعمه.

* فقال الملك: إن الذي قلت لك وقلت فاحتفظ بابنك واحذر عليه من اليهود فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً، والله مظهر دعوته وناصر شيعته فأغط على ماذكرت لك واستره دون هؤلاء الرهط الذين معك فلست آمن أن تدخلهم الرئاسة فينصبون لك الحبائل، ويطلبون بك الغوائل، وهم فاعلون ذلك، وأبناؤهم، وإن عزه لباهر، وإن حظهم به لوافر.

* ولولا علمي إنَّ الموت يطلبني لسرت إليه بخيل وراحلتي وصيرت يثرب دار ملكي فأكون أخاه، ووزيره وصاحبه وظهيره فإن في الكتاب المكنون، والعلم المخزون إن يثرب استحكام أمره، وأهل نصره وارتفاع ذكره وموضع قبره.

* ولا الدمامة لأظهرت أمره، وأوطأت العرب كعبه على صغر سنه.

* ولكني صارف ذلك إليك عن غير تقصيرك.

* ثم أمر لكل رجل من القوم بعشرة أعبد وعشرة إماء سود وحلتين من حلل البرود وعشرة أرطال من فضة وخمسة أرطال من ذهب، وأمر لعبد المطلب بعشر أمثال ذلك.

* وقال لعبد المطلب إذا كان رأس الحول فأتني بخبره، وما يكون من أمره فمات الملك قبل أن يحول الحول فكان عبد المطلب يقول لأصحابه لا يغبطني بعطاء الملك، ولكن يغبطني بما أَسَرَّ لي الملك فيقال له ماهو فيسكت/ ٦/ .

* وقالت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، وهي مرضعة رسول الله (ﷺ) قد مر علينا قائف تعني رجلاً متفرساً لا تخطئ فراسته، وهم قوم من بني مدلج يتوارثون القيافة، وكانت العرب تفضي بأحكامهم إذا ألحقوا رجلاً بقوم، أو نفوه عندهم وللشرع حكم بالقضاء بقولهم.

* وقالت حليمة: فانطلق الناس بأولادهم إلى ذلك القائف يقفو لهم قالت حليمة وانطلق الحارث بن عبد العُزَّى تعني زوجها برسول الله (ﷺ)، وهو في سن الرضاع، فأخذ من عبد العُزَّى وقبله، وقال ما ينبغي لهذا الصبي أن يكون من بني سعد قال صدقت، وهو مسترضع فينا، وهو ابني من الرضاعة، فقال القائف أُردده على أهله فإن له شأناً عظيماً وستفترق فيه العرب، ثم تجتمع عليه.

* وقال جعفر بن أبي طالب: خرج رسول الله (ﷺ)، وهو طفل صغير يلعب فرآه قوم من بني مدلج، وهم القافة فدعوه ونظروا إلى قدميه وفقده عبد المطلب فخرج في طلبه حتى انتهى إليهم، ورسول الله (ﷺ) بين أيديهم، وهم يتأملوه فقالوا ما هذا الغلام؟ قال ابني فقلوا احتفظ به فما رأينا قدماً أشبه بالقدم الذي في المقام من قدميه يعنون إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الحجر المسمى مقام إبراهيم.

* وروي أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة يتشاورون في أمرهم وحضرهم قيل من أقيال اليمن فدخل رسول الله (ﷺ) دار الندوة، وهو صبي يدعو عمه أيا طلب، فقال أكثم لأبي طالب ما أسرع فنهض إليه أبو / ٧/ طالب حين أشار إليه وخرجا معاً، فقال القيل يا معشر قريش هذا الغلام الذي ينظر مرة بعيني لبوة ومرة بعيني عذار خفرة فقالوا هذا يتيم أبي طالب، وهو ابن أخيه.

* ثم قالوا إن وصفك ينبئ عن عظمة في صدرك فقالوا أما ونسراً يعني صنماً كانت حمير تعبده لئن بلغ هذا الغلام أشده ليميتن قريشاً، ثم ليحييها، ولقد نظر إليكم نظرة لو كانت سهماً لانتظم أفئدتكم فؤاداً فؤاداً، ثم نظر إليكم نظرة لو كانت نسيماً لأنشرت الموتى قالوا له حسبك يا قيل حمير فإن الأمر غير ما تظن.

* قال: سترون. وروي أن أكثم بن صيفي، وهو حكيم العرب حج فرأى النبي (ﷺ)، وهو صبي يتبع عمه أبا طالب فقال: أكثم لأبي طالب: ما أسرع ما شب أخوك يعني رسول الله (ﷺ)، فقال أبو طالب إنه ليس أخي ولكنه ابن أخي عبد الله فقال: هذا

ابن الذبيح قال نعم وجعل أكثم يتأمله، ويتوسمه، ثم قال يا ابن عبد المطلب ما تظنون بهذا الفتى؟ قال أبو طالب: إنا لنحسن الظن به، وإنه لحي جزي سخي وفي.

* قال: هل غير هذا يا ابن عبد المطلب؟ قال نعم إنه لذو شدة ولين ومجلس ركين ومفضل مبين قال هل غير هذا يا ابن عبد المطلب؟ قال نعم إنا لنتيمن بمشهده ونتعرف البركة فيما لمس بيده، فقال أكثم هل غير هذا يا ابن عبد المطلب؟ فقال: إنه لغلام يعدو حري به أن يسود، ويتحرف بالجود.

* فقال أكثم: لكني أقول غير هذا القول يا ابن عبد المطلب قال قل فإنك نفاث غيب وجلاء ريب، فقال أكثم ما خلق يا ابن أخيك أن تضرب العرب قامطة بيد خابطة ورجل لابطة، ثم ينعق بهم إلى مرتع /٨/ مريع، وورد تشريع فمن أخرورط إليه هداه، ومن اخرورق عنه أرداه.

* فقال أبو طالب: إن عندنا الذرواء من ذلك.

* قال محمد بن المقرئ المؤلف رحمه الله لما اختصرت هنا شيئاً من مناقبه في حال صغره (ﷺ) أحببت أن أذكر شيئاً من مناقبه بعد الرسالة (ﷺ)، وما تحدث به لأصحابه من علم الغيب من ما علمه الله تعالى.

* فمن ذلك إنَّ النبي (ﷺ) كان محاصراً لأهل الطائف، فقال عُيينة بن حصين يا رسول الله إئذن لي حتى آتي حصن الطائف فأكلمهم فأذن له رسول الله (ﷺ) في ذلك فجاءهم وقال: ادنوا منكم الأمان قالوا نعم فدخل عليهم فقالوا فداكم أبي، وأمي، والله لقد سرني ما رأيت منكم، والله ما لاقى محمد مثلكم، ولقد مَلَّ المقام فاثبتوا في حصنكم فإن حصنكم حصين وسلاحكم كثير ونبلكم حاضر وطعاكم وافر لا تخافون منه.

* فلما خرج قال ثقيف: تخشى أن تخبر محمداً بحالته، فلما رجع إلى النبي (ﷺ) قال له ما قلت لهم؟ قال قلت لهم ادخلوا في الإسلام فوالله لا يرجع محمد عن دياركم حتى تنزلوا فخذوا لأنفسكم أماناً وخذلتهم بما استطعت، فقال له النبي (ﷺ): كذبت إنما

قلت لهم كذا وكذا فعاتبه أبو بكر (رضي الله عنه) فقال: يا أبا بكر أنا أستغفر الله، ولا أعود لمثلها.

* ولما توجه النبي (ﷺ) إلى تبوك طلب ناقته فنفر الناس في طلبها وعند النبي (ﷺ) عمار بن حزم، وكان في رحله زيد بن الصلت، وكان يهودياً فأسلم ونافق، فقال زيد يزعم محمد أنه نبي، ويخبركم بخبر السماء، وهو لا يعلم أين ناقته، فقال النبي / ٩/ (ﷺ): «إن منافقاً يقول يزعم محمد أنه نبي، ويخبركم بخبر السماء، وهو لا يعلم أين ناقته، فقال رسول الله (ﷺ)، والله ما أدري إلا ما علمني الله، وقد دلني عليها، وهي في الوادي في شعب كذا وكذا حبستها سَمُرَةٌ[1] بزمامها» فانطلقوا فأتوا بها فرجع عمار بن حزم إلى رحله، فقال العجب لشيء حدثنا به رسول الله (ﷺ) عز مقالة قائل أخبر عنه.

* فقال له رجل كان جالساً زيد، والله قائل هذه المقالة فأقبل عمار على زيد، وقال أخرج من رحلي يا عدو الله.

* ولما رجع المشركون إلى مكة من بدر أقبل عمير بن وهب الجمحي إلى صفوان بن أمية، وقال، والله ما في العيش خير بعد قتلى بدر، ولولا دين علي لا أجد له قضاء وعيال، ولا أجد لهم شيئاً لرحلت إلى محمد حتى أقتله إن ملأت عيني منه.

* وقد بلغني أنه يمشي في الأسواق ولي عندهم ابن أسير فأستحج عليهم بولدي.

* ففرح صفوان بقوله، وقال يا أبا أمية، وهل أراك فاعلاً قال أي ورب الكعبة قال صفوان فعلى دينك وعيالك، وأسوت عيالي، وأنت تعلم أنه ليس بمكة رجل أشد توسعا على عياله مني، فقال عمير قد عرفت ذلك يا أبا وهب.

* قال فحمله صفوان على بعير وجهزه، وأجرى على عياله ما يجري على نفسه ونقل عمير بسيفه خرج إلى المدينة، ولم يعلم أحد بذلك وقدم عمير فنزل على مسجد رسول الله (ﷺ) فنظره عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ومعه جماعة من أصحابه، فقال دونكم هذا

---

(١) السَّمُرَةُ: شجرة السدر.

عدو الله عمير فنادى عمر يا رسول الله هذا عمير بن وهب دخل المسجد ومعه السلاح، فقال رسول الله (ﷺ) أدخله علي فخرج عمر (رضي الله عنه)، فأخذ بحمائل سيفه فقبض بيده عليها، وأخذ بيده الأخرى قائمة السيف، ثم أدخل على النبي (ﷺ) / ١٠/ .

* فلما رآه النبي (ﷺ) قال يا عمر تأخر عنه، فلما دنا منه، قال النبي (ﷺ): ما أقدمك يا عمير؟ قال: قدمت لأجل أسير لي عندكم تحسنون إلينا فيه، فقال له النبي (ﷺ): «فما بال السيف؟» قال: قبحها الله من سيوف هل أغنت شيئاً إنما نسيته حين دخلت، وهو في رقبتي قال: «فما اشترطت لصفوان بن أمية في الحجر؟» ففزع عمير فقال: يا رسول الله، وما ذا شرطت فقال: تحملت بقتلي على أن يقضي دينك، ويعول عيالك، فقال عمير: أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك محمد رسول الله كنا نتهمك فيما تقول، والله ما أطلعك هذا الأمر غير صفوان، والله إنك لصادق، وقد أمرت صفوانا أن يكتم عليَّ هذا الأمر فأطلعك الله عليه فأمنت عليه بالله وبرسول.

* وشهدت إنما جئت به حق، فقال النبي (ﷺ): «**علموا أخاكم الصلاة، والقرآن، وأطلقوا له أسيره**» فقال: والله إني جاهد في إطفاء نور الله، وقد هداني فله الحمد فأذن لي فالحق قريشاً فأدعوهم إلى الله، وإلى دين الإسلام فأذن له فألحق بمكة وسأل صفوان عن عمير فقيل له إنه أسلم فلعنه، وحلف لا يكلمه أبداً وطرح عياله وقدم عمير إلى مكة فدعاهم إلى الله تعالى، وأخبرهم بصدق النبي (ﷺ) فأسلم معه خلق كثير جداً لا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى.

* من آياته (ﷺ) إطعام الجمع الكثير من الطعام اليسير عدة مواضع وسبح الحصا في كفه وحن إليه الجذع حتى انتقل إليه إلى المنبر كما تحن الناقة إلى ولدها حتى التزمه فسكن، وقال له أغرسك في الجنة بيدي فتأكل أولياء الله منك وفوق ذلك مما قل له، ووضع يده في ميضأة ففار الماء من بين أصابعه / ١١/ حتى شرب منه الخلق الكثير.

* وظهر ذئب على غنم، فقال الراعي أما تعجبوا من هذا الذئب، فقال الذئب أنت أعجب قد ظهر بمكة نبي يدعو إلى الله أفلا تجيبوه، وأولاد الرجل يسمون ببني مُكلم

الذئب إلى يومنا هذا.

* ولما أصيبت عين قتادة بن النعمان الخزرجي يوم أُحد خرجت حدقته فجاء إلى النبي (ﷺ)، فقال له: «**أيما أحب إليك أن أسأل الله عز وجل أن يرد عليك عينك، أو أسأله أن يحفظ عليك أجرك**» فقال: يا رسول الله إن تحتي امرأة تحبني، وأحبها، وإن هذا يشينني عندها فاسأل الله تعالى أن يرد علي عيني فهو أكرم أن يرحمني ثوابي.

* فأخذ النبي (ﷺ) عينه بيده وردها إلى مكانها فأبصر بها في الحال كأحسن ما كانت وعاش بعد ذلك خمسين سنة فما رمدت عينه، ولا ضربت أصلاً، وكان يقول هذا أشرف عيني، وأصحها ودخل بعض ولده على عمر بن عبد العزيز في يوم قِسمة، فقال تنسب هذين البيتين:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه ... فَرُدَّتْ بِكَفِّ المصطفى أَحسن الردِ

وَعادت كما كانت كأحسن حَالها ... فَبُوركت من عيني وبوركت من يَدِ

* ولما خرج (ﷺ) من مكة إلى المدينة ومعه أبو بكر (رضي الله عنه) ودليهما عبد الله بن الأريقط الليثي فمروا على أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة جلدة تختبئ في خبأ خيمتها، ثم تسقي وتطعم فسألوها لحماً وتمراً فلم يجدوا عندها شيئاً من ذلك، وكان القوم مرملين مُسنتين[1] فنظر النبي (ﷺ) إلى شاة في كسر الخيمة، فقال ما هذه الشاة يا أم معبد قالت شاة خلفها الجهد عن الغنم قال هل بها حلب قالت هي جهل من ذلك قال تأذنين إلي أن أحلبها قالت..... / ١٢/ إن كانت بها حلب فاحلبها فدعا بها النبي (ﷺ) ومسح بيده ضرعها فتفاجَت[2] ودرت ودعا بإناء فحلب فجاء حتى علاه اكتمال وسقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخرهم، ثم بايعها وارتحل عنها فقل ما لبثت حتى جاء زوجها يسوق غنماً عجافاً، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب،

---

(١) مرملين ومسنتين: فقراء لا يملكون شيئاً.

(٢) فاجت: فتحت ما بين رجليها مستعدة للحلب.

وقال من أين لك هذا يا أم معبد، والشاة عازب، ولا حلوبة فقالت الآن مر بي رجل مبارك من حاله كذا.

* وكذا قال صفيه لي قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوسامة حسن الوجه كريم الخلق لم تعه بخلة، ولم تزرِ به صقلة وسيم قسيم في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صهل، وفي لحيته كثاف، أزج أقرن إن سكت علاه البهاء، وإن تكلم سماه الوقار وغصن بين غضين له رفقاء يحفون به إن قال أنصتوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى ما أمر فإن نهى اجتنبوا ذلك محفود محشود لا عابس، ولا مفند.

* قال أبو معبد: هو، والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر، ولقد هممت أن أصحبه بقية عمري فلأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

* قال سعيد بن ساعدة: كنا مع النبي (ﷺ) في غزاة ومعنا رجل لا يبارز رجلاً من المشركين إلا قتله فذكرنا ذلك للنبي (ﷺ) فقال: «**إنه من أهل النار**» قال سعد: فما ذلت أتبعه لأعرف عاقبة أمره فأصابته جرحة واستبطء الموت فوضع سيفه على سرته واتكئ فمات وكثير من مثل ذلك إن كان المغيبات، والمعجزات (ﷺ).

* وأما نجابة أبناء رؤساء العصر فإن الرشيد رحمة الله عليه أمر جماعة من أهل العلم بمحادثة المأمون، وهو / ١٣/ صغير في أول الليل ليتثبت الأدب فجلس الحسن بن زياد ليلة فبين هو يحاذيه، ويناشده إذ نعس المأمون، فقال الحسن نمت أيها الأمير فاستيقظ، وقال سويقي أنت ورب الكعبة يا غلام خذ بيده فأخرجه، ولا تأذن له بالدخول علينا بعدها فبلغ الرشيد خبره فاستصوب رأيه.

* وطرائق الأدب مع الملوك إذا نام الملك، أو الرئيس يخرج جلساؤه من غير تشويش، ولا حركة، وكان عبد الله المأمون يقرأ القرآن على الكسائي، وهو إذ ذاك صغير، وكان من عادة الكسائي إذا قرأ عليه المأمون يطرق رأسه، فإذا غلط المأمون رفع الكسائي رأسه، وينظر إليه فيرجع عبد الله إلى الصواب فقرأ يوماً سورة الصف، فلما قرأ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: ٢] فرفع

الكسائي رأسه ونظر عبد الله إليه فكرر الآية فوجد الآية صحيحة فمضى على قراءته وانصرف الكسائي ودخل عبد الله المأمون على الرشيد، فقال يا أمير المؤمنين إن كنت وعدت الكسائي وعداً فإنه مستنجزه منك قال إنه كان التمس للقراء شيئاً، ووعدت به فهل قال لك شيئاً قال لا قال فما أطلعك على هذا فأخبره بالأمر فسره من ذلك فطنة المأمون، ويقظته.

* وقيل إن هارون الرشيد استشار يحيى بن خالد فيمن يعهد إليه من أولاده محمد الأمين بن زبيدة أم عبد الله المأمون بن مراجل، وكان يحيى بن خالد يعلم ميل الرشيد إلى زبيدة أم جعفر، وإيثاره لها فقال: أحضرهما يا أمير المؤمنين فأحضرهما وهما إذ ذاك صبيان صغاراً، ثم أغرى أحدهما على الآخرى، وأمرهما أن يتصارعا فوثب الأمين وجلس المأمون، وكان حليماً رزيناً، فقال الرشيد ما بالك يا عبد الله أخفت من ابن الهاشمية، فقال المأمون إني / ١٤/ لم أخفه، ولكن قبض يدي عنه ما قبض لساني، فقال، وما قبض لسانك، ويدك قال قول الشاعر:

خَافوا الضّغائِنَ بَينكم، وواصِلوا ... عِنْدَ الأباعِدِ، والحُضور الشُّهَّدِ
بِصَلاحِ ذَاتِ البَينِ طُولُ بَقَائِكم ... وَدِمَائكم بِتقطع وَتفردِ
فَلمثلِ رَيبِ الدَّهر أَلّف بَينكم ... بِتَعَاطُفٍ وَتَرَاحمٍ وَتوَدّدِ
حَتّى تَلينَ قُلوبكم وَجُلودكم ... لِمُسَوَّدٍ مِنكم، وغير مَسوَّدِ
إنّ السهامُ إذا اِجتمعنَ فرامها ... بالكسرِ ذُو حنقٍ وَبطشٍ أَيّدِ
عَزّت فَلَمْ تُكْسَرْ، وإن هي بُدّدتْ ... فالوهنُ، والتّكسيرُ للمتبدّدِ

* فَرَقَّ الرشيد رقة شديدة واغرورقت عيناه دمعاً فكفكفهما وتشدد، وأقبل على الأمين، وقال يا محمد ما أنت صانع إن صرف الله إليك أمر هذه الأمة؟ قال: أكون مهدياً يا أمير المؤمنين قال الرشيد إن فعلت فأنت أهله، ثم أقبل على المأمون، فقال يا عبد الله ما أنت صانع إن صرف الله إليك أمر هذه الأمة؟ فابتدرت دموع المأمون وفطن

الرشيد لما أبكاه فلم يملك عينه، وأرسل دموعه، ثم عاد الرشيد لمسألة المأمون قال اعفني يا أمير المؤمنين قال لا بد أن تقول، قال: إن قدر الله ذلك جعلت الحزن شعاراً، والحزم دثاراً وسيرة أمير المؤمنين شعراً لا تستحل حرامته وكتاباً لا تتبدل كلماته فأشار الرشيد إليهما فانصرفا، ثم أقبل الرشيد على يحيى بن خالد، وأنشد يقول شعراً:

أَهِمُّ بِأمرِ الحزمِ لو أَستطيعه ... وقد حِيْلَ بَيْنَ العِيرِ، والنَّزوَانِ

* فقال يحيى بن خالد هيأ الله لأمير للمؤمنين من أمره رشداً.

* قال المؤلف رحمه الله: / ١٥/ وساء ذكر هنا معنى قول الرشيد هذا البيت، وإن كانت حكايته ليس هنا موضعها، وإنما ذكرها لإكمال الفائدة أهم بأمر الحزم لو أستطيعه، وقد حيل بين العير، والنزوان فالعير هو حمار الوحش، والنزوان هو الوثوب على الأنثى، والذي عناه الرشيد بذلك تركه للعهد للمأمون مع ما يعلمه من فضله وذكاه، ويقظته، وإنما أثنى رأيه إلى الأمين عليه لأجل أمه زبيدة ومحبته لها.

* وهذا البيت قصيدة لصخر بن الشريد، وهو أخو الخنساء، وكان سيد قومه، وكان قد أغار على بني أسد فأصابته طعنة طال مرضه بها، وكانت له امرأة جميلة ذات حسن وبهاء وردف ثقيل وساق مليح تسمى سُليمى فمر بها رجل من الحي، فقال لها أيباع هذا الكِفل؟ قالت نعم عما قريب فسمعها صخر من داخل البيت، وهو ضعيف، ثم سمع امرأة تسأل أمه كيف أصبح صخر فقالت أمه نحن بخير ما دمنا نرى وجهه، ثم سمع امرأة تسأل زوجته عنه فقالت لا حي فيرجى، ولا ميت فيسلى.

* وكل ذلك في ساعة واحدة فَهَمَّ بقتل امرأته، فلما دخلت إلى البيت قال لها ناوليني السيف لأنظر هل تقله يدي أم لا فناولته السيف، فإذا هو لا يقدر أن يقله، فقال هذه الأبيات:

أَرى أُمَّ صَخْرٍ لا تمل عِيادتي ... وَمَلَّتْ سُليمى مَضْجَعي وَمَكاني

وَمَا كُنْتُ أخشى أَنْ أَكونَ جَنازةً ... عَليلاً، ومن يَغْتَرّ بالحدثانِ

* ثم أنشد هذه الأبيات:

أَهــمُّ بــأمرِ الحَــزمِ لــو أَســتطيعهُ وقــد حِيْــلَ بَــيْنَ العَــيْرِ، والنَّــزَوَانِ

لَعَمْـرِي لَقَـدْ نبهـتُ مَـنْ كَـانَ نَـائماً وأَسْــمَعْتُ مَــنْ كَانَــتْ لَــهُ أُذنــانِ

فَــأيُّ إمــرئٍ سَــاوى بــأمرِ حَليلــةٍ فَــلا عــاشَ في شَــقَاءٍ وَهَــوانِ / ١٦/

* ويقال إن الطعنة خرقت درعه، ووصلت إلى جوفه فمات.

* وسأل المهلب بن أبي صفرة ولده يزيد، وهو صغير، فقال له يا بني ما أشد البلاء؟

* قال معاداة العقلاء قال فهل غير ذلك يا بني؟ قال: نعم مسألة البخلاء قال هل غير ذلك يا بني؟ قال: نعم أمر اللؤماء على الكرماء.

* وكان أبو يزيد البُسْطامي صغيراً فاستيقظ من نومه ليلة فرأى، والده قائماً يصلي، فقال يا أبت علمني كيف أتطهر، وأصلي معك، فقال أبوه يا بني أرقد فإنك صغير، فقال يا أبت إذا كان يوم القيامة أقول لربي يا رب قلت لأبي علمني كيف أتطهر، وأصلي، فقال ارقد فإنك صغير، فقال أبوه لا، والله يا بني وعلمه، وكان يصلي معه.

❖ ❖ ❖

الفصل الثاني

من فعائل الأجواد من السلف وثقتهم بالله في حسن الخلف

* فأول ما أبتدئ به، وأشير إليه ما روي عن الوليد بن المسور الأشعري عن أبيه عن جده، وكان من أصحاب خالد بن عبد الله، وإن خالد بن عبد الله قام على المنبر بواسط خطيباً فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي (ﷺ) وقال: أيها الناس سارعوا إلى المغانم واشتروا الحمد بالجود، ولا تكتسبوا بالطل ذماً، ولا تعتدوا بمعروف لم تعجلوه، ومهما يكن لأحد منكم عنه أخذ نعمة لم تبلغ شكرها فالله أحسن لها جزاء، وأجزل لها عطاء.

* واعلموا أن حوائج الخلق إليكم نعم من الله فلا تملوا النعم فتحوزوا نقماً.

* واعلموا أن فضل المال ما اكتسب أجراً، أو ولدت ذكراً لو رأيتم المعروف رجلاً لرأيتموه حسناً جميلاً يسر الناظرين، ويفوق العالمين ولو رأيتم البخل رجلاً لرأيتموه مشوهاً تنفر منه القلوب وتغض منه الأبصار.

* أيها الناس من جاد ساد، ومن بخل رذل، وإن أكرم الناس من (...) من/ ١٧/ لا يرجوه، وأعظم عفواً من عفى عن قدرة.

* وأوصل الناس من وصل من قَطَعَهُ، ومن لم يطيب حرثه، ولم يزك نبته، والفروع عن مغارسها تنمو بأصولها تسموا أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

* وروي عن بعض بني أمية ولي الكوفة مدة طويلة، وكان بها رجل من وجوهها، وأكابرها، وكانت لا تجف له لبدة، ولا يستريح، ولا تسكن حركته في طلب حوائج إخوانه، وإدخال السرور عليهم، والموافق على ذراريهم، وكان عفيفاً في دينه، وأمانته لين الكلمة للإخوان.

* وقيل له يوماً أخبرنا بالذي هون عليك النصب وقواك على التعب في حوائج إخوانك، وأصدقائك، وما هو الباعث لك على ذلك، ومن أي شكل هو؟ فقال: والله سمعت تغريد الأطيار بالأسحار على الأشجار وتجاوب العود، والمزمار وسمعت فنون العيدان، والقينات الحسان فما طربت من صوت حسن كطربي من لسان يثني على رجل قد أحسن، ومن شكر حر لمنعم حر فقيل له لله درك لقد حشيت كرماً.

* وروي عن النبي (ﷺ) أنه قال: «**إن لله عز وجل في الأرض أواني ألا، وهي القلوب، وأحب الأواني إلى الله أصفاها، وأصلبها، وأراني أصفاها من الذنوب، وأصلبها في الدين، وأوفاني على الأخوان**» شعر:

إن السخاءَ عَلى العبادِ فَريضةٌ ... لله يُتلى في الكِتاب المُحْكَمِ

وَعَدَ الإلهُ الأسخياءَ جِنانَهُ ... وأعَدَّ للبخلاءِ نَارَ جَهنمِ

مَنْ كَانَ لا يَمدُّ يداهُ بِنائلٍ ... للراغبين فَلَيْسَ ذَاكَ بِمُسلمِ

* وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «**إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سُمحاءكم، وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من** / ١٨ / **بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاؤكم، وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها**».

* وقال ابن عباس (رضي الله عنه): شيب الرجل من مقدم رأسه من الكرم، وفي قفاه من اللؤم، وقال عبد الله بن عمير: اللئيم لا تنفع عنده معرفة إلا عن رغبة ورهبة.

* وقال إبراهيم بن أدهم: بخلت بالدنيا على أصدقائك وسخوت بآخرتك على أعدائك فلا أنت بما بخلت به معذور، ولا بما سمحت به محمود، وأنشد شعراً:

مَنْ أظهرَ الإحسانَ مِنْ فِعلهِ ... وَعَمَّ بالفَضْلِ جَميعَ الأنامِ

ازدحم النَاسُ عَلى بَابهِ ... والمنهلُ العذبُ كَثيرُ الزحامِ

* قال: وورث عبد الملك بن الحسن خمسين ألف فبعث بها إلى أخوانه صُرراً، وقال كنت أسأل لأخواني في صلاتي بالجنة أفأبخل عليهم اليوم بالدنيا.

* وقال ابن سيرين: كان أصحابنا يتهادون الدرهم في الجوالقات[1]، وعلى الأطباق.

* وقال النبي (ﷺ): «**من أدى الزكاة، وأقرى الضيف، وأدى الفائنة فقد وُقي شُحَّ نفسه**».

* وقيل كانت خالة حاتم الطائي سخية لا تترك شيئاً إلا جادت به فحضر عليها أخوتها حتى ذاقت طعم للفقر، والجوع فظنوها قد وجدت ألم الضيق فأطلقوها ودفعوا لها صُرَّة فيها مال فأتتها سائلة فقالت دونك الصرة لقد عضني الجوع فلا أمنع بعده سائلاً أبداً.

* وكان بعض الأجواد يجري على رجل شياه فغضب عليه، وكان ولده يكتب إطلاقات للناس، ويرفعها إليه فترك اسم ذلك المغضوب عليه، فقال يا بني أين ذكر فلان، فقال يا أبت إنك كنت غضبت عليه، فقال يا بني غضبي لا يسقط صلتي إن أباك لا يغضب / ١٩/ في النوال.

* وسأل بعض الصوفية وُصف الله بخير الرازقين، فقال لأنه إذا كفر به لم يقطع رزقه عن الكافر.

* وسئل رجل الحسن بن علي (رضي الله عنه) قال له الحسن يا هذا سؤالك هذا يعظم لدي ومعرفتي لما يجب لك علي، ويدي تعجز عن نيلك ما أنت أهله، والكثير في ذات الله قليل، وما في ملكي وفاء لشكرك فإن قبلت اليسير ورفعت عني مؤونة الاحتيال، والاهتمام بما أتكلف من واجبك فعلت، فقال الرجل: يا ابن بنت رسول الله (ﷺ) أنا أقبل اليسير، وأشكر على العطية، وأعذر على المنع.

---

(١) الجوالقات: الأكياس التي توضع بها الحبوب وغيرها.

* فدعا الحسن بوكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها، فقال له: هات الفاضل منها فأحضر خمسين ألف درهم منها قال: فما فعلت الخمسمائة دينار قال عندي قال علي بها فأحضرها فدفع له الدراهم، والدنانير وقال: هات من يحملها فأتاه من يحملها فدفع له الحسن رداء كان عليه أجرة حملها، فقال له مواليه ما بقي عندنا درهم، فقال لهم أرجو أن يكون لي عند الله ذلك.

* أبو الحسن الميداني قال خرج الحسن، والحسين (رضي الله عنه)، ومعهم عبد ابن جعفر (رضي الله عنه) حجاجاً فسبقتهم القافلة وفاتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا فمروا بعجوز في خبأ لها، فقال لها هل من شراب قالت نعم فأناخوا بها، وليس لها إلا شويهة واحدة فقامت وحلبت الشاة، وأتتهم بلبنها فشربوا.

* ثم قالوا هل من طعام تجينا به فقالت أذنت لكم أن تذبحوا الشويهة فما عندي سواها فقام إليها أحدهم فذبحها وقطعها فهيأت العجوز لهم منها طعاماً فأكلوا، وأقاموا حتى أبردوا، فلما ارتحلوا قالوا نحن قوم من قريش / ٢٠/ نريد هذا الوجه، فإذا لا وجه، فإذا رجعنا لمي بنا فإنا صانعوا لك خيراً إن شاء الله تعالى، ثم ارتحلوا.

* فجاء زوج المرأة فأخبرته خبر القوم، وما قالوا لها فغضب وقال: ويحك أتذبحين شاة ما لنا سواها لقوم لم نعرفهم، ثم بعد مدة ألجأتهم حاجة إلى دخول المدينة فدخلاها وجعلا يبتاعان البعر، ويعيشان بثمنه فمرت العجوز في بعض طرق المدينة.

* وإذا الحسن على باب داره فعرفها، وهي لم تعرفه فبعث إليها غلامه فدعاها إليه، فقال لها: يا أمة الله هل تعرفيني قالت لا، والله قال أنا أحد ضيوفك يوم صنعت لنا الشاة قالت بأبي أنت، وأمي فأمر أن يشتري لها من غنم الصدقة ألف رأس، وأمر لها بألف دينار وبعث بها مع غلامه إلى أخيه الحسن فدفع ألف شاة، وألف دينار وبعث بها إلى عبد الله بن جعفر، فقال بكم وصلك الحسين، والحسين قالت بألفي شاة، وألفي دينار، فقال لها بدأتي بي لأتبعهما، ثم دفع لها ألفي شاة، وألفي دينار فرجعت العجوز لزوجها بالمال، والأغنام.

* وحكى مصعب بن الزبير قال حج معاوية في بعض حجاته، فلما انصرف مر بالمدينة، فقال الحسن لأخيه (رضي الله عنه): لا تلقى معاوية، ولا تسلم عليه، فلما خرج معاوية من المدينة قال الحسين لأخيه إن علينا ديوناً، ولا بد لنا من معاوية فركب الحسن وخرج في أثره فلحقه وسلم عليه وقضى من حقه ما يجب وسأله عن حاله فأخبره الحسن بما عليه من الدَّين فالتفت معاوية، فإذا هو بختي من البخاة قد عيا وعجز عن المشي وقوم يسوقونه، فقال ما هذا قالوا / ٢١/ بختي قد تعب وعليه مال قال كم مقداره قالوا عشرة آلاف دينار قال اصرفوه بما عليه لأبي محمد الحسن فأخذه ورجع.

* وقدم عبد الله بن جعفر على يزيد بن معاوية، فقال يزيد: ما كان أمير المؤمنين يعطيك يعني أباه معاوية قال كان رحمه الله يعطي مائة ألف درهم إذا قدمت عليه قال: لك مائة ألف ولقولك رحمه الله مائة ألف قال بأبي أنت، وأمي قال ولهذه الكلمة مائة ألف قال أحسن الله إليك، وقال ولهذه الكلمة مائة ألف.

* قال فحمل عبد الله المال وانصرف فقيل ليزيد أنفذت المال، وأجحفت بالخزانة دفعت لرجل واحد خمسمائة ألف درهم، فقال ما دفعتها له وحده، وإنما دفعتها لسائر أهل المدينة لأنه ما يملك درهماً إلا جاد به.

* فلما رجع عبد الله إلى المدينة لم ينزل عن راحلته حتى فرقها لمن يستحقها فعوتب في ذلك فقال: إن الله تعالى عودني عادة وعودت خلقه عادة عودني أن يمدني بالرزق وعودت خلقه بالبر فأكره أن أقطع العادة فيقطع عني العادة.

* وقيل ضاق به الوقت في آخر عمره فدعا يوم جمعة، فقال اللهم إن كنت صرفت عني ما كنت تجريه على يدي من الإحسان إلى خلقك فاقبضني إليك فما عاش إلى جمعة أخرى.

* وحدث الهيثم بن عدي قال تراهن ثلاث نفر في الأجواد، فقال أحدهم أجود الناس في عصرنا هذا قيس بن علقمة، وقال آخر: أجود الناس في عصرنا هذا عرابة الأوسي، وقال آخر: أجود الناس جعفرنا هذا عبد الله بن جعفر فتشاجروا في ذلك،

وأكثروا، فقال لهم الناس يمضي كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ننظر ما يعطيه ونحكم عل العيان.

* فقام صاحب / ٢٢/ عبد الله بن جعفر فضافه، وقد تجهز لبعض أسفاره على راحلته، فقال يا ابن عم رسول الله (ﷺ) أنا ابن سبيل منقطع أريد رفدك لأستعين به، وكان وضع رجله على ظهر الراحلة فأخرج رجله، وقال خذ ما عليها فأخذها، فإذا عليها مطارف خز، وألفا دينار.

* ومضى صاحب قيس بن سعد فصادفه نائماً فقرع الباب فخرجت إليه جارية فقالت ما حاجتك فإنه نائم؟ قال ابن سبيل منقطع أتيت إليه يُعينني على طريقي فقالت الجارية حاجتك فإنه من انقصاظه علينا، ثم أخرجت له صُرة فيها ثلاثمائة دينار وقالت له امض إلى معاطن الإبل فاختر لك منها راحلة فاركبها وامضي راشداً.

* فمضى الرجل، وأخذ المال، والراحلة، فلما استيقظ قيس من نومه أخبرته الجارية بالخبر فأعتقها سروراً.

* ومضى صاحب عرابة فوجده قد عمي، وقد خرج من منزله يريد المسجد، وهو يمشي بين عبدين، فقال يا عرابة ابن سبيل منقطع يريد رفدك، فقال واشوقاه، والله ما تركت الحقوق في بيت عرابة، ولا الدراهم الفرد، ولكن يابن أخي خذ هذين العبدين، فقال الرجل ما كنت بالذي أَقُصُّ جناحيك فقال، والله لا بد من ذلك، وإن لم تأخذهما فهما حران ونزع يديه من العبدين ورجع إلى بيته وهذا الجدار يصده، والآخر يلطمه حتى أثر في وجهه.

* فلما اجتمعوا حكموا لصاحب عرابة بكثرة الجود.

* وخرج أعرابي حاجاً، فلما كان في بعض الطرق مات جمله فذهب إلى عمر بن عثمان، وكان يومئذ، والي المدينة فشكا إليه فلم يعطه شيئاً فقعد الأعرابي يتصفح وجوه الناس فمر به عبد الله بن جعفر فقام إليه الأعرابي، وقال هذه الأبيات: / ٢٣/

أبا جَعفرٍ إن الحجيجَ مُحَمَّلٌ ... وليس لرحلي فاعلمن بَعيرُ

أَبَـا جَعفـرٍ ضَـنَّ الأمـيرُ بمالـهِ　　وأنـتَ عَـلَى مَـا في يـديك أمـيرُ
أَبـا جَعفـرٍ ابـن الشـهيدِ الـذي لـه　　جَنَاحَـانِ في أعـلا الجنـان يَطـيرُ
أَبـا جَعفـرٍ مِـنْ آلِ بَيْـتِ نُبـوةٍ　　صَـلاتُهم بالعـالمين طُهـورُ

* وكان لعبد الله بعير يقدمه فعزله، وقال خذه بما عليه فذهب الغلام الذي له ليأخذ السيف الذي كان لعبد الله على البعير، فقال له عبد الله: دعه فقد أعطيته البعير بما عليه، فقال الغلام للأعرابي هذا احتفظ بالسيف فإن شراءه ألف دينار.

* وخرج عبد الله بن جعفر هذا إلى بعض أسفاره فنزل على نخيل القوم وفيها عبد أسود يحرسها فأتى بقوته، وهو ثلاثة أقراص، فبينما هم جلوس إذ دخل كلب إلى تلك النخيل، وهو يلهث فدنا من الغلام، وهو يتشوف إلى تلك الأقراص فرمى له العبد قرصاً فأكله.

* ثم رمى له الثالث فأكله فأكل الكلب الجميع، وعبد الله ينظر، فقال عبد الله للعبد كم قُوتك يا ولدي كل يوم في هذا المكان قال ثلاثة أقراص، وهم هؤلاء قال فلم آثرت هذا الكلب بهم قال يا سيدي ليست هذه بأرض كلاب، ولم أشك أنه جاء من مسافة بعيدة، وهو جائع، ولم يحضرني سواهم قال فما أنت صانع؟ قال أطوي إلى غد قال عبد الله بَخٍ بَخٍ، والله إن هذا لأسخى مني فما برح عبد الله إلى أن اشترى النخيل، والعبد، وأعتقه، ووهب له النخيل وارتحل عنه.

* قال عرض محمد بن الجهم داره ليبيعها، فلما اجتمع الناس دفع شخص خمسين ألف درهم، فقال محمد بن الجهم اشتريها وطب نفساً وقر عيناً قال بماذا قال / ٢٤/ بجوار لسعيد بن العاص، وما سيرته في جيرانه قال إن سألته أعطاك، وهو إن سكت عنه ابتدأك، وإن أسأت إليه أحسن إليك، وإن أحسن إليك بمن غلبك القول إلى سعيد بن العاص فوجه إليه مائة ألف درهم، وقال خذها، وأمسك عليك دارك.

* واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة داراً كانت له في السوق تسعين ألف

درهم، فلما كان الليل سمع عبد الله بكاء آل خالد، فقال ما بالهم يبكون؟ قال: إنهم يبكون لخروجهم من دارهم التي اشتريتها، فقال يا غلام أعلمهم إنَّ الدار، والمال لهم جميعاً.

* ودخل الرشيد إلى الكعبة ومعه إبراهيم الجمعي، فلما خلا به قال له إبراهيم قد وجب حقك علي فإن كانت لك حاجة فاذكرها لي قال: يا أمير قال يا أمير المؤمنين إني أكره أن أسأل غير الله في بيته، وقال المأمون للعتابي سلني فقال: يا أمير المؤمنين يدك بالعطية أبسط من لساني بالمسألة فاستحسنها منه، وأمر له بأربعين ألف درهم.

* وذكر أبو العباس الشيبابي قال: لما مرض أبو دلف بالعلة التي مات بها أقام شهراً ملازماً الوسادة فأفاق يوماً، فقال لخادمه بِشْركم لي على هذا الحال؟ قال شهر: فلما سمع ذلك من بشر بكى بكاءً كثيراً، وقال أيمر علي من عمري هذه المدة لا يُرى فيها أحد من الناس؟ يا بشر اخرج على الباب فإن قلبي يشهد أن بالباب قوماً لهم إلينا حوائج فلا تمنع أحداً من الدخول إلينا فخرج بشر، فإذا هم عشرة من أولاد أبي طالب فأمرهم بالدخول فدخل فابتدر رجل منهم وقال: أصلح الله نحن قوم من بني أبي طالب من أهل بيت رسول الله (ﷺ) وفينا ولده.

* وقد أحاطت بنا المصائب، وأجحفت بنا النوائب فإن رأيت أن تجبر كسرنا وتغني فقرنا فعجل، فقال لخادمه: خذ / ٢٥/ بيدي وقم فأجلسني على ذلك الفراش ففعل، ثم قال لهم ليأخذ كل واحد منكم ورقة ليكتب فيها بخطه أنه قبض مني مائة ألف درهم فتحيروا عند قوله، فلما كتبوا الرقائع وضعوها بين يديه، فقال لخادمه ائتني بالمال فأحضر، وأعطى كل واحد منهم مائة ألف درهم، فلما تسلموا المال قال له رجل بالآباء نفديك وبالأمهات نقيك، والله مالنا مال، ولا عقار وحظوتنا عندك ماذا تصنع بها فبكى، وقال لهم تظنون أنها وثائق عليكم لا والله، لا والله.

* ثم قال لخادمه يا بشر إذا أنا مت فاجعل الرقاع في أكفاني ألقى بها محمداً (ﷺ) في عَرَصَات القيامة، ثم قال له أوصل كل واحد منهم ألف دينار لنفقة طريقه انصرفوا

بارك الله فيكم، وقد قيل فيه[1]:

إنـــا الـــــدنيا أبـــــو دُلَـــــفٍ بـــــين باديـــــة ومحـــــتضرهْ
فـــــإذا وَلَّى أبـــــو دُلَـــــفٍ وَلَّـــــتِ الـــــدنيا عـــــلى أثـــــرهْ

* ولما خرج يزيد بن المهلب على ابن أمية وتغلب على البصرة أخذه عمر بن عبد العزيز وحبسه فهرب من سجنه ليلاً، وكان مع ابنه مخلد فنزلا بعجوز من العرب فذبحت لها عنزاً، فلما أصبح قال لابنه كم معك من المال قال ثمانمائة دينار قال ادفعها للعجوز قال يا أبت إنك لفي شدة، وإنك لمحتاج للمال وهذه العجوز يرضيها منك اليسير، وهي لا تعرفك، فقال أبوه يا بني إن كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضى بالعطاء اليسير فإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف بنفسي ادفع المال كله لها ففعل ومضى.

* وذهب بعض الشعراء إلى معن فأقام ببابه يوماً فلم يؤذن له، فقال لأحد غلمانه ما بال الأمير لا يركب، فقال له هو في البستان مختلي فأتى الشاعر على البستان، وأخذ /٢٦/ خشبة، وكتب عليها أبياتاً، وهو يقول:

أيـا جُـودَ مَعـنٍ نَـاجِ مَعناً بحـاجتي فَـمالي إلى مَعَـنٍ سِـواكَ رَسـولُ

* ثم ألقاها في الماء الذي هو داخل البستان، وكان معن جالساً على رأس الماء، فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها فأمر بدخول صاحبها فأعطاه مائة ألف درهم، فلما كان في اليوم الثاني أخرجها وقرأها، ثم دعا صاحبها فأعطاه مائة ألف درهم، فلما كان في اليوم الثالث أخرجها وقرأها، ثم دعا صاحبها فدفع له مائة ألف درهم، فلما أخذها الرجل تفكر في نفسه، وقال أخاف أن يرتجعها مني، فأخذ المال وذهب.

* فلما كان اليوم الرابع أخرجها وقرأها، ثم دعا بالرجل فأخبر أنه انصرف، فقال معن ما أقل قسم هذا الشاعر لقد وجب له علي أن لا يكون في خزائني درهم إلا ملكه.

---

(١) البيتان في ديوان علي بن جبلة ص ٦٨.

* وخطب عبد الله بن عامر الناس في يوم عيد النحر، وكان عاملاً بالبصرة حينئذ، وكان من فصحاء الناس فارْتُجَّ عليه، ولم يفتح عليه بشيء، ولا بكلمة واحدة فبقي ساكتاً ساعة، ثم قال يا أهل البصرة لا يجمع عليكم عبد الله بين صمت ولوم إلا من أخذ شاة من السوق فهي له وثمنها علي قوموا رحمكم الله قال فتبادرا الناس إلى غنم كانت تباع قريباً من سوق بإزاء المصلى، فأخذ كل منهم شاة، ووزن عبد الله ثمنها فكانت القيمة عن ذلك أربعة آلاف دينار.

* وكان جعفر بن يحيى يضرب دنانير وزن كل دينار مائة دينار وصعد إلى أعلى داره، ويرمي بها فمن أخذ منها شيئاً كان له، ولا ينكسر عليه إذا صرفه، وكان / ٢٧/ على كل دينار مكتوب هذين البيتين:

وَأَصْفَرَ مِنْ ضَرْبِ دَارِ الملوك يَلُوحُ على وَجهِهِ جَعفرُ

يَزِيدُ على مائة واحدٍ إذا نالَهُ مُعْسِرٌ يُوسِرُ

* وركب خالد في يوم شديد البرد كثير الغيم فتعرض له رجل في الطريق، فقال له ناشدتك الله إلا ضربت عنقي، فقال أكفر بعد إيمان قال لا قال أزنى بعد إحصان قال لا قال انتزعت يداً من طاعة الله قال لا قال أفقتلت نفساً بغير تبيان قال لا قال فما سبب ذلك؟ قال لي خصم لحوح قد علق بي ولزمني وقهرني قال من هو قال الفقر قال فكم يكفيك لدفعه؟ قال أربعة ألف درهم قال إني ممدك بأربعة ألف درهم، فقال خالد يا غلام إدفع له أربعة آلاف درهم.

* ثم التفت، وقال: هل ربح أحد من التجار كربحي اليوم قالوا كيف ذلك؟ قال عزمت على أن أعطي هذا الرجل ثلاثين ألف درهم، فلما طلب أربعة آلاف درهم توفر علي ستة وعشرون ألفاً، فلما سمع الرجل ذلك منه قال له حاشاك، وأعيذك بالله أن تربح على مؤملك، فقال يا غلام أعطه ثلاثين ألف، ثم قال للرجل اقبض المال واذهب آمناً من خصمك ومتى رجع يعارضك استنجدنا عليه.

* وحدث الأصمعي قال كنت أغشى رجلاً لكرمه فأتيته بعد مدة فوجدته قد غلق باب بيته فأخذت ورقة وكتبت فيها:

إذا كـــان الكـــريمُ لَـــهُ حِجَـــابٌ   فَـــمَا فَضْـــلُ الكـــريمِ عـــلى اللئـــيمِ

* وبعثت بها إليه، ووقفت أنتظر الجواب فعادت، وعلى ظهرها مكتوب:

إذا كـــان الكـــريمُ قَليـــلَ مَـــالٍ   تَسَـــتَّرَ بالحُجَّـــابِ عَـــنْ الغـــريمِ / ٢٨/

* ومع الرقعة صُرَّة فيها خمسمائة دينار فقلت، والله لأُتْحِفنَّ أمير المؤمنين بهذه المأمون الحكاية فأخذت الصرة، والرقعة ومضيت إلى المأمون فدخلت عليه، فقال من أين يا أصمعي فقلت من عند أكرم الناس حاشا أمير المؤمنين، ثم قصصت عليه القصة، ووضعت الصرة، والرقعة بين يديه فتأمل الصرة.

* وقال يا أصمعي هذه الصرة بختم بيت المال فأحضر الرجل الذي دفعها إليك فقلت الله الله يا أمير المؤمنين الرجل قد أولاني خيراً قال لا بد منه فقلت غير مروع قال غير مروع فعرفته مكانه فبعث إليه فحضر، فلما مثل بين يديه جعل المأمون يتوسمه، وينظر إليه.

* ثم قال له ألست أنت الرجل الذي وقفت بموكبنا بالأمس وشكيت إلينا رقة حالك وكثرة عيالك قال نعم يا أمير المؤمنين قال، وأمرنا لك بخمسمائة دينار قال نعم، وهي هذه يا أمير المؤمنين قال، ولم دفعتها للأصمعي على بيت واحد من الشعر؟ قال استحييت من الله إن أرد قاصدي إلا كما أمير المؤمنين بالأمس ردني قال لله درك ما أكرم خلقك، وأوفر مروتك، ثم أمر له بألف دينار فأخذها وانصرف.

* قال الأصمعي: فقلت أن أرى أمير المؤمنين أن يلحقني به قال لا نحن نكمل لك الألف فأمر للأصمعي بكمالها.

* قيل واشترى عبيد الله ابن أبي بكر جارية بعشرة آلاف درهم فطلب دابة ليحملها فناداه رجلاً يا سيدي هذه دابتي لك فقالوا احملوها على دابته له واذهبوا بها إلى منزله.

قال شعر:

سَـــابِقْ إلى الخـــيرِ وَبَـــادِرْ بِـــهِ　　فَـــإنَّ مِـــنْ خَلفـــكِ مَـــا تَعلـــمُ

وَقَـــدّمِ الخَـــيرَ فكُـــلُّ اِمْـــرِئٍ　　عَـــلى الـــذي قدمـــه يقـــدمُ

يَـــا ليـــتَ شِـــعْري بعـــد ذا مـــا الـــذي　　أورثـــك الـــدينارُ، والـــدرهمُ / ٢٩/

* قال: وكان عمرو ابن ربيعة إذا احتجم أعتق الذي حجمه، فإذا لم يكن له ابتاعه، وأعتقه فإن كان حراً أعطاه عنزه، قال: ورجع أسماء بن خارجة إلى باب داره، فإذا بفتى على باب الدار، فقال له يا فتى ما أجلسك ها هنا قال خيراً فألح عليه قال جئت سائلاً إلى هذه الدار فخرجت إلي جارية فاختطفت قلبي فجلست لكي تخرج ثانياً فأنظر إليها قال، أو تعرفها قال نعم فدعا الجواري فجعل يعرض عليه هذه وهذه حتى مرت به التي رآها قال هي هذه.

* فقال مكانك ودخل الدار وخرج، وقال إنها لم تكن لي فابتعتها بثلاثة آلاف درهم فخذ بيدها بارك الله لك فيها فولدت له بالكوفة أولاداً كثيرة.

* قال: وكان أسماء بن خارجة يقول ما بذل لي رجل وجهه فرأيت شيئاً من الدنيا أعظم من بذل وجهه وفيه يقول:

إِذَا مَـــاتَ اِبـــنُ خَارِجَـــةَ بْـــنِ حُصْـــنٍ　　فَـــلا مَطَـــرَتْ عَـــلَى الأرضِ الســـماءُ

ولا رَجَـــعَ البشـــيرُ بِغُـــنْمِ جِـــنْسٍ　　ولا حَمَلَـــتْ عَـــلَى الظهـــرِ النســـاءُ

فَيَـــومٌ مِنْـــكَ خَـــيْرٌ مِـــنْ أُنـــاسٍ　　تَـــروحُ عَلـــيهم نِعَـــمٌ وَشَـــاءُ

فَبُـــوركَ في بَيْتـــكَ وَبيـــتهم　　إِذَا ذُكِـــروا نَحْـــنُ لهـــم فِـــدَاءُ

* قال ودخل المنكدر على عائشة (رضي الله عنها)، فقال أصابتني حاجة فأعينني عليها؟ فقالت ما عندي شيء ولو كانت عندي عشرة آلاف درهم ابتعثتها إليك، فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم فأرسلتها إليه فخرج إلى السوق فاشترى جارية بألف درهم فولدت له ثلاثة أولاد فكانوا يقولون عباد المدينة: محمد، وأبو بكر وعمر بني

المنكدر حتى ذُكر عن بعض الأعراب أنه قال، والله إذا أتانا قحط نتوسل الله تعالى بمحمد بن المنكدر فيسقينا الغيث، وكان / ٣٠/ كذلك.

* وَذُكر عن صاحب شرطة معن قال بينما أنا على رأس معن إذا هو براكب مُجد يريد النزول بساحة معن، فقال لحاجبه لا تحجبه فأجابه حتى مثل بين يديه، وقال أصلحك الله، ثم أنشد:

قَلَّ ما يدي فما أُطيقُ العيالَ إذا كثروا
أَلَحَّ دَهْرٌ رَمَى بِكَلكلِهِ فأرسلوني إليك وانتظروا

* وقد قال بعض الحكماء إن المعروف لينفع عند الكلب العقور، والليث الهصور فكيف عند الكريم شعر:

إذا كنت ذا مال لم تكن.... فأنتَ إذاً، والمقترين سِوى
عَلَى أَنَّ في الأموالِ يَومٌ تباعة على أهلها، والمقترينَ سوى

* وروي عن الأصمعي قال لقي أعرابي طلحة الطلحات، فقال إن ترى أن تفيض عَليَّ مما أفاض الله عليك قال، فقال يا غلام أُحثُ له مما في خرجك قال فحثا له حتى امتلأ كمه دنانير فبكى الأعرابي قال، فقال له ما يبكيك يا أعرابي لعلك لم يكفك ما أخذته واستقللته قال لا، والله ولكني أبكي على كريم مثلك يواريه التراب، فقال يا غلام ادفع إليه الخرج كما هو.

* وقد ذكر إنَّ الأسخياء من أهل الإسلام عبد الله بن جعفر وطلحة الطلحات وسمي بذلك لأنه أجود من طلحة الفياض وطلحة بن عمر بن عبد العزيز التيمي، وهو طلحة الجود وطلحة بن عبيد الله بن عوف، وهو طلحة الندى وطلحة بن الحسن بن علي، وهو طلحة الخير وطلحة بن عبيد الله بن خلف الخزاعي، وهو طلحة الطلحات.

* وحكي أن طلحة الطلحات / ٣١/ لما قدم البصرة أتاه الناس يسلمون عليه فأدخلهم داره، وكان حين نزل عن دابته قال لغلامه انظر من أتى مُسَلِّماً هل له من حاجة؟ فنادى غلامه في الناس، فقال هذا على دين، وقال آخر كذا وآخر كذا، فقال طلحة قضيت حوائجكم، وأعطاهم ما طلبوا، فقال الناس ما رأينا طلحة هذا وثياب السفر عليه، وأخرج قبل أن ينزل أربعمائة ألف درهم، فقيل فيه هذا:

فَتَى غَيْرَ مَحجوبِ الغِنَى عَنْ صَديقه ... ولا مُظْهِرُ الشكوى إذا النَّعْلُ زَلَّتِ

رَأى خِلتي مِنْ حَيْثُ يخفى مَكَانهم ... فَكَانت فِدى عينيه حين تَخَلَّتِ

* وقال كان لمعن بن زائدة شاعر يغشى مجلسه في كل يوم فانقطع عنه أياماً، فلما دخل عليه قال ما أبطأك قال ولد لي مولود قال فما سميته قال:

سَمَّتَ مَعناً بِمَعَنٍ، ثم قُلتُ لَهُ ... هذا فَرْقُ عِقْدُ المجدِ، والجُودِ

* قال يا غلام ألف دينار، وقال بيتاً آخر فقال:

سَمَا بِجُودكَ جُودُ الناسِ كُلهم ... فَصَارَ جُودُكَ محرابُ الأجاويدِ

* قال يا غلام أعطه ألف دينار أخرى، وقال بيتاً آخر فقال:

أَنْتَ الجوادُ وَمِنْكَ الجُود أولُه ... فَإِنْ فُقِدْتَ فَما جُودٌ بِمَوجُودِ

* فقال يا غلام أعطه ألف دينار أخرى وقل بيتاً آخر فقال:

مِنْ نُورِ وَجهك تُضْحِي الأرضُ مُشرقةً ... ومن بِنَانِكَ يَجري الماءُ في العُودِ

* فقال يا غلام أعطه ألف دينار وقل بيتاً آخر، فقال الغلام لا تقل، والله لم يبق في بيت المال إلا ما أخذت، ثم انصرف.

* قال الأصمعي: حصلت في بعض البوادي فحضرني جماعة من فتيان العرب فقلت لأحدهم ما القِرى قال نار يعلو شررها وخيمة يُوفى / ٣٢/ كنفها فقلت لآخر كيف القرى قال تلقى النزيل بالوجه الجميل، وقال آخر نار تأجج، وأسنة تلهوج وقلت

لشيخ فيهم ما تقول أنت قال؟ تأجج الضرام تستدل به على بيوت الكرام، وقال آخر نار قديمة الوادي عظيمة الرماد تسيل بكل وادي، ويحيى بها كل العباد.

* وقلت لآخر فمن القوم قال من الذين لا تجفى نارهم، ولا يخفى جارهم وحسبهم في العليا أشهر من نجوم السماء فانظر يا أخي رحمك الله إلى ذكر هؤلاء القوم بليت أشخاصهم وتليت مكارمهم تضرب بها الأمثال، كأنَّ أوقاتهم أضغاث أحلام قال:

ما زِلْتُ أسمعُ بالحديثِ، ولا أرى   مَعناهُ يوجدُ كاسمِهِ تحقيقا
فَكأنهُ العَنْقاءُ تَعرفُ باسمها   والجسمُ لَيْسَ يُرى له تحقيقا



الفَصْلُ الثَّالِثُ

في اصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف

* سعى رجل من الكوفة في فساد في دولة المنصور فعلم به وجعل لمن دل عليه مائة ألف درهم فأقام الرجل حيناً متخفياً حتى مضى الاختفاء، ثم ظهر في مدينة السلام فبينا هو يمشي في بعض الشوارع إذ رآه رجل من أهل الكوفة فعرفه، فأخذ بمجامع ثيابه ونادى هذا طلبة أمير المؤمنين فبينا الرجل على تلك الحالة.

* وقد اجتمع عليه الناس إذا سمع وقع حوافر الخيل من ورائه فالتفت، فإذا هو معن بن زائدة، فقال يا أبا الوليد أنا في جيرتك فوقف، وقال للرجل الذي تعلق به ما شأنه؟ قال هذا بغية أمير المؤمنين الذي قد هدر دمه وجعل لمن دل عليه مائة ألف درهم فصرخ معن، وقال دعه، ثم قال دعه يا غلام مردوفاً خلفي فأردفه خلفه وساق فصاح الرجل يحال بيني وبين / ٣٣/ أمير المؤمنين.

* ولم يزل عايطاً إلى أن أتى باب أمير المؤمنين فنادى بأعلى صوته نصيحة لأمير المؤمنين فأمر المنصور بحضوره فدخل عليه، وأخبره الخبر فأمر بإحضار معن فأتاه الرسل فدعي معن بينه وبين عبيده، وقال لا تسلموا هذا الرجل منكم واحد يعيش، ثم سار إلى المنصور فدخل وسلم فلم يرد عليه، وقال يا معن أتجير علينا عدونا قال نعم قال وتقتدر بنعم أيضاً واشتد غيظه، فقال معن: يا أمير المؤمنين بالأمس بعثتني إلى اليمن مقدم الجيش قتلت في طاعتك في يوم واحد عشرة آلاف نفس ولي مثله أيام كثيرة ما رأيتموني أهلاً أن تجيروا لي رجلاً واحداً استجار بي ودخل منزلي فسكن غضب المنصور.

* وقال قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد قال معن فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله بصلة يعلم بها موقع الرضا عنه فإن قلب الرجل انخلع من صدره خوفاً قال قد أمرنا له

بخمسين ألف درهم قال يا أمير المؤمنين إن صلة الخلفاء على قدر جنايات الرعية، وإن ذنب الرجل عظيم فأجزل له العطية قال قد أمرنا له بمائة ألف درهم قال عجلها يا أمير المؤمنين فإن خير البر عاجله فأمر له بتعجيلها فأحضر معن الرجل، وقال خذ صلة أمير المؤمنين وقبل يده، وإياك ومخالفة الخلفاء في أرض الله.

* فأخذ الرجل المال واستغفر الله تعالى وذهب.

* قال أبو الفرج السلمي قال حدثني عمر بن المعلى قال: جلس النعمان ابن المنذر وعليه حلة مرصعة بالدر لم ير مثلها قبل ذلك اليوم، وأذن للعرب في الدخول عليه، وكان فيهم أوس بن حارثة قال فجعلت العرب تنظر إلى الحلة وَكُلّاً منهم يقول لصاحبه ما رأيت مثل هذه الحلة قط، ولا سمعت أن أحداً من الملوك قدر على مثلها؟ قال: وأوس بن حارثة مطرق / ٣٤/ لا ينظر إليها قال له النعمان ما أرى كل من دخل إلي إلا استحسن هذه الحلة، وتحدث مع صاحبه في أمرها إلا أنت مع نقصان قدرها عندي ما رأيتك استحسنتها، ولا نظرت إليها قال أوس أسعد الله الملك إنما يستحسن الحلة إذا كانت في يد التاجر أما إذا كانت على الملك، وأشرق فيها وجهه فنظري مقصور عليه لا عليها فاسترجح عقله واستحسن قوله.

* فلما عزموا على الانصراف قال لهم النعمان اجتمعوا إلي في غد فإني ملبس هذه الحلة لسيد العرب منكم فانصرف العرب عنه، وكل يزعم أنه لا بس الحلة في غد، فلما أصبحوا تزينوا بأفخر الملابس وتقلدوا بأحسن السيوف وركبوا أجرد الخيل وحضروا إلى النعمان وتأخر عنه أوس بن حارثة.

* فقال لهم أصحابه ما بالك لا تعدو مع الناس إلى مجلس الملك فلعلك تكون صاحب الحلة، فقال أوس إن كنت سيد قومي فما أنا بسيد العرب عند نفسي، وإن حضرت، ولم آخذها انصرفت منقوصاً، وإن كنت المطلوب لها فسيعرف مكاني فأمسكوا عنه ونظر النعمان في وجوه القوم فلم ير أوس بن حارثة فاستدعى بعض خاصته.

* وقال اذهب لتعرف خبر أوس فمضى رسول النعمان واستخبر بعض أصحابه فأخبره بما قاله فعاد إلى النعمان فأخبره بذلك فبعث النعمان إليه رسولاً، وقال احضر آمناً مما خفت عليه فحضر أوس بثيابه التي حضر بها بالأمس، وكانت العرب قد استبشرت بتأخره خوفاً من أن يكون آخذ الحلة، فلما حضر، وأخذ محله قال له النعمان إني لم أرك غيرت ثيابك في يومك فالبس هذه الحلة لتتجمل بها.

* ثم خلعها، وألبسها له فاشتد ذلك على العرب وحسدوه، وقالوا لا حيلة لنا فيها إلى أن نرغب الشعراء يهجوه بقبيح الفعل فإنه / ٣٥/ لا يخفض رفعته إلا الشعر فجمعوا فيما بينهم خمس مائة ناقة، وأتوا بها إلى رجل يقال له جدول، وقالوا له خذ هذه واهج لنا أوس بن حارثة، وكان جدول يومئذ أشعر العرب أقواهم هجاءاً.

* فقال لهم يا قوم كيف أهجو رجلاً حسيباً لا ينكر بيته كريماً لا ينقطع عطاؤه فضيلاً لا طعن على رأيه شجاعاً لا يضام نزيله محسناً لا أرى في بيتي شيئاً إلا أنه فضله فسمع بذلك رجل يقال له بشر بن أبي حازم شاعر فرغب في البذل، وأخذ الخمسمائة ناقة وهجا وذكر أمه سُعْدَى.

* فسمع أوس بذلك فوجه في طلبه فهرب وترك الإبل فأتوا بها إلى أوس بن حارثة فأخذها وشد في طلبه وجعل بشر بن أبي حازم يطوف في أحياء العرب يلتمس عزيزاً يجيره على أوس، وكل من قصده يقول له قد أجرتك إلا من أوس بن حارثة فإني لا أقدر أجيرك عليه، وكان أوس قد أدلى عليه العيون فرآه بعض من كان يرصده فقبض عليه، وأتى به إليه.

* فلما مثل بين يديه قال له، ويلك أتذكر أمي، وليس في عصرنا مثلها قال، وقد كان ذلك أيها الأمير فقال، والله لأقتلنك قتلة تحيا بها سعدى يعني أمه، ثم دخل أوس إلى أمه سعدى، وقال قد أتيتك بالشاعر الذي هجاك، وقد آليت إلا أقتله قتلة تحيين بها قالت يا بني، أو خير من ذلك قال، وما هو قالت إنه لم يجد ناصراً منك، ولا مجيراً عليك، وإنا قوم لا نرى في اصطناع المعروف من بأس فيحق عليك إلا أطلقته ورددت عليه إبله،

وأعطيته من مالك مثلها، ومن مالي مثل ذلك، وأرجعه إلى أهله سالماً فإنهم أسوا منه فخرج له أوس، وقال ما تقول إني فاعل بك قال تقتلني / ٣٦/ لا محالة قال أتستحق ذلك قال نعم قال إن سعدى التي هجوتها أشارت بكذا وكذا، وأمر بحل كتافه فرفع يشير يده إلى السماء، وقال اللهم أنت الشاهد علي لا أعود إلى شعر إلا يكون مدحاً في أوس بن حارثة، وله بعد ذلك قصائد كثيرة[1].

* وذكر العباس ابن الفرج بإسناد ذكره كان في خلافة سليمان بن عبد الملك رجل يقال له خزيمة بن بشر الأسدي، وكان مقيماً بالرقة، وكانت له مروءة ظاهرة وبر كثير بالأخوات وكرم مشهور فلم يزل على تلك الحالة حتى قعد به دهره وناح عليه بملكه ولح عليه الفقر فواسوه أخوانه قليلاً، ثم ملوه، فلما لاح له تغيرهم اختار لزوم بيته، وأغلق بابه وانقطع عن الناس.

* وكان عكرمة الفياض، والياً على الرقة من قبل سليمان بن عبد الملك، فبينما هو في مجلسه وعنده جماعة من أصحابه إذ جرى ذكر خزيمة بن بشر فأعلموه أنه لزم بيته، وأغلق بابه، فقال عكرمة، وما كان لخزيمة من يكافيه على مروءته، ويسد خلته، وأمسك عكرمة عن الحديث، فلما خلا المجلس ومضى من الليل جانب قام عكرمة إلى كيس وجعل فيه أربعة آلاف دينار.

* ثم أمر بدابته فأسرجت وخرج سراً من أهله فركب ومعه غلام من غلمانه يحمل المال، ثم سار حتى أتى دار خزيمة، فأخذ الكيس ونزل عن دابته من قبل أن يصل إلى باب خزيمة وبعث الغلام بالدابة إلى مكان آخر وتقدم حتى وصل إلى باب خزيمة فقرع الباب فخرج خزيمة وفتح الباب فناوله عكرمة الكيس، وهم بالانصراف فمسك خزيمة بطرفه، وقال له من أنت؟ قال ما جئتك هذا الوقت، وأريد أن يعرفني أحد.

* فقال خزيمة: لا بد من معرفتك قال أنا جابر عثرات الكرام / ٣٧/ وتركه

---

(١) الخبر في ديوانه تحقيق د. عزة حسن ط وزارة الثقافة بدمشق.

ومضى، فأخذ خزيمة الكيس ودخل، وهو يظنه فلوساً، فلما رجع عكرمة إلى منزله وجد زوجته على أشر حال لأنها ظنت أنه خرج إلى زوجة غيرها، أو جارية اشتراها، فقال لها يا هذه قري عينا فوالله ما خرجت لشيء من ذلك، وإنما أردت أن أفعل شيئاً لا يعلمه إلا الله تعالى فلم تزل به إلى أن أعلمها بصورة الأمر.

* قال، ثم إن خزيمة بن بشر أصلح شأنه واشترى ثياباً فاخرة ومركباً حسناً وتجهز إلى سليمان بن عبد الملك، وكان يومئذ بفلسطين، وكان عارفاً، فلما دخل عليه قال له ما أبطأك عنا يا خزيمة قال سوء الحال يا أمير المؤمنين قال فما منعك من النهوض إلينا قال قلة ذات يدي قال فما أراك إلا في أحسن حال، وأجمل هيبة قال إن صورة أمري لعجيب يا أمير المؤمنين، ثم قص عليه قصته من أولها إلى آخرها فاهتز سليمان طرباً وجعل يقول جابر عثرات الكرام، ويكررها، ويقول، وإنه لقد اشتقت أن أنظر إلى جابر عثرات الكرام، وإلى معرفته.

* والله لو عرفته لأعنته على مروءته فلله دره ما أحسن فعله، وأوفر عقله، ثم د... بفتاه فعقد الولاية لخزيمة على الرقة، والجزيرة، وهو الذي بيد عكرمة، وأمره أنه يقبض على ماله، ويحتاط عليه، ويحاسبه فخرج خزيمة يريد الرقة، فلما اقترب إليها خرج عكرمة يتلقاه ومعه وجوه الناس فتلقاه ودخل خزيمة الرقة فدخل في دار الإمارة، وأراد عكرمة الانصراف فمنعه خزيمة، ووكل به من يحفظه، وأمر بإحضار ماله، والمال الذي تحت يده وعمل الحساب فحوسب فبقى عليه شيء كثير فبعث به إلى السجن، وأن يثقل بالحديد فأقام ثلاثة أيام، وهو لم يذكر له ما فعله معه فمضى زوجته ذلك فبعثت إلى خزيمة وهي.... بئس / ٣٨/ ما جازيت به جابر عثرات الكرام يا خزيمة، فلما سمع هذا خزيمة دهش عقله وطار لبه، وقال وا سوأتاه وا خجلتاه وا فضيحتاه من الله تعالى، ومن جابر عثرات الكرام، ومن أمير المؤمنين.

* وقام من وقته، وأتى إلى السجن يمشي وهجم على عكرمة ورمى بنفسه عليه وجعل يقبل يديه، ويعتذر له، ويقسم بالله إنه ما عرفه، وأخرجه ودخل به إلى الحمام،

وأحضر له ما يحتاج إليه من قماش وطيب واستبشر أهل المدينة بذلك غاية الاستبشار، وأخذه وخرج من يومه راكبين إلى سليمان بن عبد الملك، فلما استأذن عليه الحجاج جزع سليمان من ذلك.

* وقال عامل الرقة، والجزيرة يقدم إلينا من غير إذن، فلما دخل قال ما أقدمك يا خزيمة علينا قال يا أمير المؤمنين ظفرت بجابر عثرات الكرام قال، أو عرفته قال نعم قال من هو.

* قال عكرمة الفياض لا حول، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم بئس ما جازيناه به عن مروءته، ثم أذن له في الدخول، فقال له سليمان بئس ما جازيت به كريم فعلك وعظيم مروءتك يا عكرمة وبئس ما فعله خزيمة قال عكرمة معذور يا أمير المؤمنين إذا لم يعلم ونصيحة أمير المؤمنين أحب إليه.

* قال، فقال سليمان إن اصطناع المعروف لا يكاد يخفى، ولا يضيع، وأمر لعكرمة بمال جزيل وسامحه بما كان وجب عليه الخروج منه، وعقد لهما الولاية على الرقة، والجزيرة، وأضاف إليهما من الأعمال إقليماً كبيراً.

* وحدث الحسن بن الخضر قال لما أفضيت الخلافة إلى بني العباس اختفت رجال من بني أمية، وكان في جملة من اختفى إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك، ولم يزل مختفياً إلى أن أخذ داود أماناً من أبي العباس السفاح، وكان إبراهيم رجلاً أديباً بليغاً حسن /٣٩/ المحاضرة محظي عند أمير المؤمنين السفاح، فقال له يوماً لقد مكثت زماناً طويلاً مختفياً فحدثني بأعجب ما رأيت في اختفائك فإنها كانت أيام تكدير؟

* قال: يا أمير المؤمنين، وهل ممتع أعجب من حديثي لقد كنت مختفياً في منزل أنظر إلى البطحاء فبينا أنا على ذلك إذ أنا بأعلام سود خرجت من الكوفة تريد البصرة فوقع في ذهني أنها تطلبني فخرجت متنكراً، والله ما أعرف أين أتوجه، ولا إلى أين أذهب؟ فأتيت الكوفة من غير طريق معروفة، وأنا لا أعرف الرحبة، ووقفت قريباً من الباب، وإذا رجل حسن الهيئة، وهو راكب فرساً ومعه جماعة من أصحابه وغلمانه فدخل

الرحبة فرآني وقفاً مرتاباً، فقال لي ألك حاجة؟ قلت غريب خائف من القتل قال ادخل فدخلت إلى حجرة داره.

* وقال هذه لك وهيأ لي ما كنت أحتاج إليه من فرش وآنية ولباس وطعام فأقمت عنده مدة، والله يا أمير المؤمنين ما سألني قط من أنا، ولا ممن أخاف، وكان إذا ذاك يركب في كل يوم و يعود متعوباً متأسفاً كأنه يطلب شيئاً لم يجده فقلت له يوماً أراك تركب كل يوم وتأتي متعوباً متأسفاً كأنك تطلب شيئاً فاتك؟.

* فقال إن إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك قتل أبي وبلغني أنه متخفي، وأنا أطلبه لعلي أجده فآخذ ثأري منه بسيفي هذا فتعجبت، والله يا أمير المؤمنين من هربي وشؤم بختي الذي ساقني إلى منزل رجل يريد قتلي، ويطلب ثأره مني فكرهت، والله الحياة يا أمير المؤمنين واستعجلت الموت لما نالني من الشدة فسألت الرجل عن اسم أبيه وعن سبب قتله فعرفت الخبر، وهو صحيح فقلت يا هذا قد وجب علي حقك، ومن / ٤٠/ حقك أن أدلك على قاتل أبيك، وأقرب لك الخطوة؟ قال أتعلم أين هو؟ قلت: نعم، قال: أين أجده؟ قلت: هو أنا خذ بثأر أبيك قال أظنك مَضَّكَ الاختفاء وكرهت الحياة قلت، والله أنا قتلته يوم كذا وكذا بسبب كذا وكذا.

* فلما علم صدقي تغير لونه واضطرب كونه واحمرت عيناه فطرق ساعة، ثم رفع رأسه، وقال أما أبي فسيلقاك غداً يوم القيامة يحاكمك عند من لا تخفى عليه خافية.

* وأما أنا فغير مختفر ذمتي، ولا مضيع نزيلي، ولكن اخرج عني فإني لا آمن من نفسي عليك بعد اليوم، ثم وثب يا أمير المؤمنين إلى صندوق فأخرج صرة فيها خمسمائة دينار، فقال خذ هذه واستعن بها على خفائك فكرهت أخذها.

* وخرجت من عنده، وهو أكرم رجل رأيته يا أمير المؤمنين قال فبقي يهتز طرباً، ويتعجب.

* وأخبرني عيسى بن عيسى قال حدثني عبيد الله بن سليمان قال كنت، وأبو العباس أحمد بن الخطيب مع خلق كثير من العمال، والكتاب، وأصحاب الدواوين في الترسيم

مع محمد بن عبد الملك الزيات، وكان ابن الزيات يطالبنا ببقايا ومحاسبات، ونحن في أعظم ما يكون من المصادرات، والشدة.

* قال فمرض الواثق بالله واشتد مرضه وحجب ستة أيام عن الناس فدخل عليه أحمد بن أبي داود يعوده، وكان قاضي القضاة، فقال له الواثق بالله يا أبا عبد الله ذهبت مني الدنيا، والآخرة، وقد أيقنت بالموت فهل عندك من خير تدلني عليه قال له أحمد يا أمير المؤمنين إن وزيرك ابن الزيات قد غرك في جماعة من الكتاب، وأصحاب الدواوين، وقد ملأ بهم الحبوس، وأنكاهم بالمصادرة، ولم يحصل أمير المؤمنين منهم على طائل.

* وهم خلق كثير وراءهم ألف يد ترفع إلى الله تعالى / ٤١/ بالدعاء على أمير المؤمنين فيأمر أمير المؤمنين بإطلاقهم لترفع تلك الأيادي بالدعاء لأمير المؤمنين، فلعل الله سبحانه وتعالى أن يهب لك العافية فإن أمير المؤمنين محتاج في هذا الوقت إلى أن تقل خصومته عند الله تعالى، فقال الواثق بالله، والله إن هذا لنعم الرأي وقع لهم يا أبا عبد الله بإطلاقهم، والفك عنهم.

* قال أحمد يا أمير المؤمنين إن رأي إن الوزير عاند وتغافل ولج عليهم، ولكن يغنم أمير المؤمنين الأجر، والثواب، ويحمل المضض على نفسه، ويستند، ويوقع لهم بخطه ففعل الواثق ما أشار إليه أحمد، ووقع لهم بخطه، وهو يضطرب إلى ابن الزيات أن يطلقهم، وكل من في السجن بغير مراجعة، ولا مرادفة ودفع التوقيع إلى رجل من خاصته وسير معه جماعة من غلمانه، وأمرهم بالمضي إلى ابن الزيات، ويأخذ بأمثال الأمر عاجلاً، ويمنعوه من الحضور عند الواثق بالله فمنعوه ومسكوا بغلته فارتاع لذلك.

* وظن إنَّ الحادثة قد وقعت به فنزل عن دابته وجلس على غاشيته، وقال من تحدث بأمرهم مع أمير المؤمنين قال أحمد قاضي القضاة قال، فإذا أطلقت هؤلاء من أين أجمع الأموال للأجناد حتى أشاور أمير المؤمنين؟ قالوا لا سبيل إلى ذلك، ثم إنهم لم يدعوه حتى أطلق الجميع، فلما دخل قال عبيد الله، وأحمد، فلما دخل علينا الحاجب السجن آيسنا من أنفسنا، فقال البشارة أن أمير المؤمنين أمرنا بإطلاقكم وعرفنا السبب، وما فعل

أحمد بن أبي داود القاضي معنا فخرجنا من السجن، ووقفنا لأحمد في الطريق التي يمر فيها فحين رأيناه دعونا له وشكرناه فكره ذلك منا، وأراد أن ينزل عن فرسه فمنعناه وجل يخبرنا بخير، ونحن ندعو له، وهو يستصغر فعله، ويقول / ٤٢/ هذا بعض ما يجب من حقوقكم وستعلمون ما أفعله وقت عودي إلى أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى.

* ثم رجع إلى الواثق بالله عشية النهار فوجده قد خف من مرضه، وأكل الخبز، فلما رآه الواثق بالله قال هذا ببركة رأيك يا أبا عبد الله، فقال أحمد يا أمير المؤمنين أما أنت أعلم إنَّ الأيدي التي كانت تدعو عليك صارت تدعو لك، ويدعو لك خلق كثير من رعيتك بسببهم ولكنهم قد صاروا إلى دور خراب، وأحوال قبيحة لا فرش، ولا كسوة، ولا دواب، وأمير المؤمنين إن رغب أن يستكمل، ويستديم نعمة الله تعالى عليه فيكمل نعمته عليهم قال فيما إذا قال بالذي في خزائنك من آثارهم، وفي اصطلامك من دوابهم، وفي قصرك من جوارهم فإن أمرت برد ذلك عليهم وتفرج عن ضياعهم ليعيشوا وتقوا العافية، ويتضاعف عن الدعاء فوقع لهم بذلك.

* قال: فأخذنا جميع ما كان أخذ لنا، ومات الواثق بالله بعد ذلك بثلاثة أيام وبقيت هذه المكرمة مؤرخة لأحمد بن أبي داود رحمه الله.

* ودخل رجل على سالم بن قتيبة الباهلي: فسأله عن حاجة فوضع الرجل نعل سيفه على أصبع سالم بن قتيبة واتكأ على سيفه، ولم يزل يكلمه في حاجته إلى أن رض أصبع سالم فأدماه وسالم صابر، فلما عاين الناس ذلك منه وفرغ الرجل من كلامه وقضى حاجته وخرج من عنده وجعل سالم يمسح الدم من أصبعه بمنديل وشدة فقيل له لم لا رفعت سيفه من رجلك بيدك قال خفت أن أفعل ذلك ليخجل مني فينسى من حاجته شيئاً.

* وحدث أبو موسى الفضل عن أبيه قال سمعت زينب بنت سليمان بن علي بن عبيد الله بن عباس قالت كنت عند الخيزران جارية المهدي وعادتها إذا كانت عندها / ٤٣/ تجلس في عتبة باب الرواق مقابل الإيوان، وأجلس أنا بإزائها في الصدر في

مجلس كان المهدي يجلس فيه، وهو يقصدنا في كل وقت يجلس عندنا في بعض الأوقات ساعة، ثم ينهض، فبينما نحن كذلك إذ دخلت علينا جارية من جوار الخيزران اللاتي يحجبها فقالت أعز الله السيدة إن بالباب امرأة ذات جمال وخلقة حسنة، وهي على غاية من سوء الأحوال تستأذن عليك فسألتها عن اسمها فامتنعت من ذلك.

* وقالت زينب فأشارت الخيزران أن إلي وقالت ما ترين فقلت ما يضر من دخولها شيء؟ فلا بد من فائدة، أو ثواب فدخلت امرأة أجمل ما يكون من النساء، وأكملهن فوقفت إلى جانب الباب وسلمت وقالت أنا جارية... بنت مروان ابن عبد الملك ابن محمد الأموي فقالت زينب، وكانت متكئة فقمت جالسة فقلت... قاتلك الله، ولا حياك، ولا رعاك، ولا سلم عليك، والحمد لله الذي أزال النعمة عنك وهتك سترك، وأهانك بين الناس.

* أتذكرين يا عدوة الله حين أتاك نساء بني العباس يسألنك أن تكلمي أباك في الإذن في دفن إبراهيم بن محمد فوثبت عليهن، وأسمعتهن أخشن الكلام، وأغلظ القول وخرجن على الحالة التي علمتيها قالت زينب، فلما سمعت كلامي ضحكت فوالله ما أنسى حسن ثغرها وعلو صوتها بالقهقهة.

* ثم قالت أي بنية عمي أي شيء ما عجبك من صنع الله بي، والله لقد فعلت بنساء أهلك ما قد ذكرت، ولكن حقاً على الله تعالى أن يسلمني ذليلة جائعة حيرانة شعثة خاضعة فكان هذا شكرك لله على ما أولاك في.

* ثم قالت سلام عليكم، وولت خارجة قالت زينب فالتفت إلى الخيزران، فإذا هي.... ونادت الخيزران يا مرائية دخلت بإذني، ولا تخرجي إلا بإذني وصاحت بحاجبها ردوها فرجعت وقالت، والله ما ساقني إليك إلا الضر، والجهد وسوء الحال فنهضت / ٤٤/ الخيزران فعانقتها ما في لذلك موضع الحال الذي أنا عليه فقالت الخيزران لجواريها عليكم بالحمام وسرعة فذهبوا بها للوقت إلى الحمام، وأمرت بعض جواريها بخدمتها، ولم يبرحوا بها حتى وافتها الخلع المذهبة، والطيب فقامت إليها

الخيزران، وأعتقتها، وأجلستها المجلس الذي يجلس فيه أمير المؤمنين المهدي، وقدمت إليها الموائد فجعلت تأكل وتلقمها إلى أن اكتفت فغسلت يديها فقالت لها الخيزران هل عندك أحد ينتظرك؟.

* قالت مالي أحد فقالت الخيزران قومي اختاري لك مقصورة من مقاصيري فاسكني عندي، ولا نفترق حتى يفرق الله بيننا بالموت فقامت وطافت واختارت أوسعها، وأنزهها فحول إليها جميع ما تحتاج إليه من الفرش، والكساوي، والحرير، والدقيق، ثم تركناها وخرجنا من عندها.

* فقالت الخيزران: هذه امرأة قد مسها من الضر ما لا مزيد عليه، ولا يغسل ما في قلبها إلا المال احملوا لها خمسمائة ألف درهم فحملت إليها لوقتها ودخل المهدي في آخر الأمر، فقال ما بكم فنهضت إليه زينب، وأعلمته بجميع ما جرى، وما قالت لها حين دخلت عليها فغضب غضباً شديداً، وقال ما هذا سجودك لله تعالى على ما أنعم عليك، والله لولا لك علي حرمة لأحلفن أني ما أكلمك أبداً قالت يا أمير المؤمنين قد طاب قلبها واعتذرت إليها وفعلت ومعها الخيزران كذا وكذا فسره ذلك.

* وقال احملوا إليها من عندي مائة ألف درهم، وقال لخادم كان على رأسه بلغها مني السلام وقل لها أنني ما سررت بشيء منذ دهري كسروري اليوم بمقامك عندنا فلا تدعي في نفسك حاجة إلا ذكرتيها لي، ولولا أكره أن...../ ٤٥/ لصرت إليك مسلماً عليك وقاضياً بحقك فمضى الخادم بالرسالة فجاءت إلى المهدي وسلمت عليه.

* وقالت ما علي من أمير المؤمنين حشمة فإنني عدت من بعض جواريه، فقال لا، والله بل أعز من ولدي، ولم تزل عند الخيزران حتى ماتت.

* ولما حج المنصور أمير المؤمنين عُرض عليه جوهر نفيس له قيمة عظيمة للبيع فعرفه، وقال كان هذا لهشام بن عبد الملك بن مروان فانتقل إلى ابنه محمد بن هشام، وما بقي من بني أمية غيره، ولا بد لي منه، ثم التفت إلى حاجبه الربيع، وقال إذا كان غداً

وصليت بالناس في المسجد الحرام وحصل الناس كلهم أغلق الأبواب كلها، ووكل بها جماعة من الثقات وافتح باباً واحداً وقف عليه، ولا تخرج أحداً حتى تعرفه.

* فإذا ظفرت بمحمد بن هشام فأتني به، فلما كان من غد فعل الربيع ما أمره به المنصور، وكان محمد بن هشام في المسجد فعرف أنه المطلوب، وأيقن أنه مأخوذ مقتول فتحير وارتاب واضطرب، فبينما على تلك الحالة إذ أقبل محمد بن زيد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) فرآه متحيراً، وكان لا يعرفه فقدم إليه.

* وقال يا هذا ما بالك؟، فقال لا شيء، فقال أخبرني ولك الأمان إن شاء الله على نفسك قال محمد بن هشام بن عبد الملك فمن أنت قال أنا محمد بن زيد بن علي بن الحسين؟ فرد خوفه وطار عقله وتحقق الموت، فقال له لا تجزع فلست قاتل أبي، ولا جدي، وليس لي عليك ثأر، وأنا أجتهد في خلاصك إن شاء الله تعالى، ولكن تعذرني في ما أنا صانع بك من مكروه قبيح حطاب، ويكون سبب خلاصك.

* فقال له افعل ما شئت فطرح رداءه على وجهه وغطى به رأسه وجذبه وسحبه إلى أن قرب من الربيع /٤٦/ حاجب المنصور، وهو على الباب، فلما وقعت عين الربيع عليهما لطمه محمد بن زيد لطمات في رأسه، وجاء به إلى الربيع، وقال: يا أبا الفضل إن هذا الخبيث جمال من أهل الكوفة أكراني جمالا له، فلما دفعت له الكروى هرب مني وذهب فاكترى جماله لبعض أهل خراسان ولي عليه شهود، وأريد منك من يوصله معي للقاضي، ويمسك جماله عن الذهاب مع الخراسانيين فرسم الربيع عليه اثنين، وقال لا تفارقاه إلى القاضي، ومحمد قابض على الرداء.

* وقد استتر وجهه به فخرجوا جميعا من المسجد، فلما بعدوا عن الربيع قال له محمد اذهب إلى حال سبيلك فقبل محمد بن هشام فيه ورأسه، وقال الله أعلم حيث يجعل رسالته.

* ثم أخرج جوهراً له قيمه عظيمة، وقال لله تعالى يابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) شرفني بقبول هذا، فقال اذهب بمتاعك فنحن أهل بيت لا نقبل على اصطناع المعروف مكافأة

واحترز على نفسك من هذا الرجل إلى أن يخرج فإنه مجد في طلبك.

* وذكر عن المأمون أنه قال يوماً ليحيى بن أكثم قم بنا نخرج إلى الرقة الشماسية فخرج إلى الصحراء، وإذا برجل قد خرج من بين القضب، وفي وجهه قصة يحركها في وجه المأمون وصاح فنفرت دابته فسقط إلى الأرض، وقال: والله لأقتلنه، فقال يا أمير المؤمنين إن المضطر يركب الصعب من الأمر، وهو عالم بركوبه ولو أحسنت الأيام مطالبتي لأحسنت مطالبتك ولئن تلقى الله خائفا خير من أن تلقاه قاتلا، فقال المأمون كيف قلت اعد عليّ؟ فأعاد عليه مقالته فالتفت المأمون إلى يحيي بن أكثم، وقال ما رأيت كيف خاطبني المرء بأصغريه قلبه ولسانه، ثم قال هات قصتك فوالله ما أوقع فيها إلا، وأنا قائم فوقع فيها، ثم ركب قال / ٤٧/

إذا لم يَكُنْ إلا عَلى الشَّرِّ مَركبٌ فلا عُذْرَ للمُضْطَرِّ عِنْدَ رُكوبِها

* قال لما أحس يحيى بن خالد بالتغير من أمير المؤمنين الرشيد استشار صديقاً له في أمره، وقال أن أمير المؤمنين قد أحب جمع المال، وقد كثرت أولاده، وهو يحب أن يتخذ لهم الضياع، والرياع، والعقار، وقد كثرت علينا الحسدة، فقال له الرجل أشير عليك أن تنظر إلى ما في أيدي البرامكة من ضياع وعقار، وأموال فتجعله لك كله لأولاد أمير المؤمنين فان أنت فعلت ذالك ازددت عنده منزلة، وأحبك؟، فقال يحيى، والله لئن تزول النعمة عني أهون على من إن أزيلها عن غيري.

* قال ومشى رجل في ركاب يحيى بن خالد وطلب منه حاجة، فقال له يا هذا إن حاجتك قد قضيت فارجع فوالله ما وقع غبار موكبي على لحية رجل إلا وجب له عليّ حق لا أقدر أن أكافية عليه ولو أعطيته ملء الأرض ذهباً.

* وحدث القاسم ابن المعتمر عن أبي معتوق الحمصي عن أبيه قال كنت عند الحكم ابن الطلب بن حنطب، وهو في السياق فقلت اللهم هون عليه فأنه كان، وكان وذكرت ما كان له من اصطناع المعروف ففتح عينه، وقال من المتكلم؟ قلت: أنا قال إن ملك

الموت يقول لك إني بكل سخي رفيق، ثم احمر وجهه وضحك، ومات فوالله كأنه سراج انطفى.

* وروي عن عُيينة بن أبي سفيان إنه قال زينني أبي، وأرسلني إلى عمي عتبة أخطب ابنته فأتيته فأقعدني في حجره، وقال مرحبا بأقرب قريب خطب، وأحب حبيب ورد لا أستطيع له ردا، ولا أجد من نفعه بدا يابني قد زوجتكها، وأنت أعز علي منها، وهي أحظى بقلبي منك فأكرمها بعذب على لساني ذكرك، ولا تهنها فيصغر عندي قدرك.

* وقد قربتك مع قرابتك فلا/ ٤٨/ تباعد قلبي من صلتك.

* وروي عن داود بن المهلب كان أجود الأجواد، وأنه حضر طعامة يوما رجل بدوي عليه شعث السفر، وكان إذا حضر الطعام يتقدم يصرف البوابين، ولا يمنع من الحصول إلى طعامه، فلما فرغ من الطعام

* وثب قائماً، وأومى إليه، وقال من أنت يافتى من العرب قال شاعر قصدتك بأبيات من الشعر، فقال داود مهلا قليلا، ثم دعا بقوس فأوتره وسهما فَوَّقَهُ، وأومى إليه، وقال له قل فإن أحسنت خلعت، وأجزت، وإن أخطأت رميتك بهذا السهم تقع في أي موضع تقع فتبسم البدوي، وقال هذه الأبيات.

أَمنتُ بداود وُجُودِ يمينهِ مِنَ الحدثِ المرهوبِ، والبُؤسِ، والفَقرِ

وَأصبحتُ لا أخشى بداود بنوة ولا حَدَثان إنْ شددتُ بِهِ أَزري

فما طَلحةُ الطلحاتِ سَاواه في الندى ولا حَاتِمُ الطائي، ولا خَالد القَسْرِي

لَهُ حُكمُ لُقمانَ وصورةُ يُوسفَ وَمُلكُ سُليمان وَصِدْقُ أبي ذَرِ

فَتى تَهربُ الأموال مِنْ جُودِ كَفهِ كَما يَهربُ الشيطانُ مِنْ ليلةِ القَدْرِ

فَقوسكُ قَوسُ الجُودِ، والوَتَرُ الندي وَسَهْمُكَ فيه الموتُ فاقتلْ بِهِ فَقْرِي

* قال فضحك داود ورمي القوس عن يده، وقال يا فتى العرب بالله هل كان ذكر القوس في الأبيات، فقال لا، والله ولكنه حضرته القافية ففرح بذالك، وقال يا فتى

العرب بالله أيما أحب إليك أعطيك على قدرك، أو على قدري قال بل على قدري قال كم قدرك قال مئة ألف درهم فأمر له بها.

* ثم قال مأمنعك أن تقول على قدري؟، فقال أيها الأمير أردت إن أقول ذالك، فإذا إنَّ الأرض لم تساوي قدر الأمير فطلبت على قدري، فقال زد لله دره، والله إن نشرك لأحسن من فضلك وكلاهما / ٤٩/ مليح، وأمر له بمائة ألف ثانية وسأله أن لا ينقطع.

* وقد ذكر عن الفضل بن يحيى ابن خالد أنه ركب في حشمه بموكب إلى الصيد حتى علا النهار، ثم مر فضربت له المضارب، وأمر بالطعام فقدم بين يديه، فبينما هو يأكل، وإذا بإعرابي على ناقة قد أشرف، فلما نظر إلى تلك المضارب، والجيش، والجنايب، والغلمان ما شك أنه هارون الرشيد فنزل عن ناقته وعقلها، ثم دنا، وقال السلام عليكم يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال له الفضل صه، فقال السلام عليكم أيها الوزير، فقال صه، فقال السلام عليكم أيها الأمير، فقال قد قاربت فاذْنُ فدنى، وأكل، فلما فرغ من الأكل قال له الفضل من أي العرب أنت قال من ربيعه، فقال: أين تريد، قال: إلى الفضل فقد شاع في العرب ذكره وكرمه فقصدته على الاسم، والذكر ببيتين من الشعر، فقال يا أخا العرب قد أضفناك، ووجب نصحك علينا، وأنا عارف بالفضل فأنشدنا فإن كان يصلح له وصلناك إليه، وإن لم يكن أعطيناك نفقة توصلك إلى أهلك، وأنت على جاهك فأنشد.

ولو قيلَ للمعروف نَادِ أخا العُلا   لنادى بأعلا الصوتِ يا فَضْلُ يا فَضْلُ
ولو أُمُّ طِفْلٍ مَضَّها جُوعُ طِفْلها   وَغذتهُ باسمِ الفَضْلِ لاستطعم الطفلُ

* فقال الفضل أحسنت إنهما لبيتان جيدان، ولكن إذا قال لك الفضل هذان البيتان لقيتها من شعر العرب وجئتنا بهما لتخدعنا عن حاجتك قال أقول له يأمر بإحضار كتاب فيه شعر فيفتحه فأي وزن وقافية اشتهي عملت عليها بيتين، فقال يا غلمان

احضروا كتابا فيه أشعار فحضر ففضه فخرجت قصيدة ابن جهم الذي يقول فيها[1]:

عُيــــون المهـــا بــــينَ الرُّصَـــافَة، والجسر

* فقال الفضل هذا وزن سهل/ ٥٠/ وقافية سهلة فإن قال لك الفضل أريد أن تعمل أربعة أبيات يكون في كل بيت منها اسم الفضل فما تصنع فتفكر قليلا، وقال شعر.

ولائمــةً لامتــكَ يَــا فَضْــلُ في النَّــدَى	فَقُلُـت لها هـل يقـدحُ اللـومُ في البَحْـرِ
أرادت لتثني الفَضْلَ عَـنْ عَـادةِ النـدى	ومن ذَا الذي يُثْني السَّحَابَ مِنَ القَطْرِ
مَواقــعُ الجُــود الفضــل في كُــلِّ بَلــدةٍ	مَواقِــعُ مَــاءِ المُــزْنِ في البلــد القَفْــرِ
كَــأنَّ وفــود الفَضْــلِ حِــيْنَ تَحملــوا	إلى الفَضْــلِ وَافى عِنــدهُ ليلــةَ القــدرِ

* فقال أحسنت يا أخا العرب أنا الفضل فنهض الأعرابي وقبل يده، وقال له الفضل ما الذي أملته مني؟، فقال له ألف درهم استعين بها على حالي، فقال يا غلام ادفع له ألفاً، وألفاً، وألفاً، ولم يزل يكررها حتى انقطع نفسه فحصى ذالك فكان ستة عشر ألفاً، وأخذها وانصرف.

* فانظر يا أخي إلى هذا السادة، وما كانوا عليه من الشفقة على عباد الله تعالى، وما وفقوا له من اصطناع المعروف في زمانهم بأعلام أعمالهم منشورة إلى قيام الساعة، ثم افكرني أهل زماننا هذا فهل ترى إلا كما قال الشاعر:

قَومـــاً إذا اســـترفدتهم فكَـــأنما	حَاولــتُ نَتْــفَ الشَّــعْرِ مــن آنــافهم
قُــمْ فاســقينها بــالقَنوعِ وغـــزلي	ذَهَــبَ الــذين يُعــاشُ في أكْنَــافهم

* وقد روى عن الإمام علي (رضي الله عنه) أنه كان كثيراً مما إذا خطب يوم الجمعة يقول يا أيها الناس عليكم بالمعروف واذكروا فعل الجِنِّيّ.

---

(١) البيت مشهور لعلي بن الجهم مطلع قصيدة نادرة.

* قال ابن الأثير لبعض أصحابه: انطلق بنا إلى أمير المؤمنين حتى نسأله عن هذا الجني ما هو فقد أكثر فيه القول فأتيا فدخلا عليه، فقال ما دعى بكما في هذه الساعة، فقال يا أمير المؤمنين سمعناك تقول عليكم بالمعروف واذكروا فعل الجني قال ما تدرون ما هو/ ٥١/ قالا لا؟ قال فذاك كان فيكم قالا من قال مالك بن خريم الهمداني خرج حاجا في رهط من أصحابه حتى إذا كان في بعض الطريق قال لهم اسندوا فقد قدمتم على الماء فاسندوا فرقدوا حتى طلع القمر من آخر الليل فانساب إليهم شُجَاعٌ من الجبل فطاف بالقوم فأبصر به فتى منهم فأدنى منه العصا وطاف بالقوم، فلما انتهى إلى الشيخ أهوى القنا بالعصا وخشي أن يسبقه إلى الشيخ فيبلغه فضربه فأخطأه ففرغ.

* فقال الشيخ من قال الشجاع دخل تحتك قال استجار بي فأجرته قال فخرج شجاع فرجع من حيث أتى، وقال ارقدوا فقد قدمتم على الماء، فلما استيقظوا إلا بحر الشمس فقاموا، فأخذ كل إنسان بخطام راحلته.

* يطلبون الماء، فإذا هم على ظل، فلما رأى ذلك الشجاع. قال شعر.

يا أيها الركبانُ الماءُ أَمَامكم	حتى تسوموا المطايا يَومُهَا الدأبا
ثم أسندوا يمينه فالماءُ عن كَثَبٍ عين	دَواء وَمَاءٌ يُذْهِبُ الغيا

* فأسندوا، فإذا عين راكدة فشربوا وسقوا إبلهم وصدروا، فلما رجعوا كانوا بأدنى الجبل قالوا يا خريم لو استعدينا من ذلك الماء فأسندوا إلى الماء، فلما رأى ذالك شجاع ناداهم من الجبل يقول شعر من كلام الجان أيضاً:

ياما لعيني جَزاكِ اللهُ صَالحةً	هذا وَداعٌ لكم مِني وتسليمُ
لا تزهدوا في اصطناعِ العُرفِ مِنْ أحدٍ	إنَّ الذي يُحرمُ المعروف مَحرومُ
أنا الشجاعُ الذي أنجيتُ مَنْ زهقٍ	شَكرتُ ذلك إنَّ الشُّكْرَ مَقسومُ
مَنْ يَفْعَلِ الخيرَ لا يعدو مَغبتهُ	مَا عاشا، والشَّرُّ منه العيبُ مَذمومُ

* قال وخرج عبيد بن الأبرص في بعض أموره ومعه صاحب له، فإذا بِشُجَاعٍ[1]/ ٥٢/ يتقلب في الرمضاء فقالوا يا عبيد دونك الشجاع فاقتله قال أنا أكفيكموه، فأخذ دلوه من ماء فصب له فشرب وصب فضلته على رأسه ومضى، فلما قضى سفراً ضَلَّ به الطريق قال لهم وهرب بكره، فإذا بهاتف يهتف به، ويقول:

يَا صَاحِبَ البِكْرِ المُضل مذهبهُ لَيْسَ مَعَهُ ذو رَشَادٍ يصحبهُ

دُونك هذا البِكْرُ مِنا فاركبهُ وبرك الدراج أيضا فأصاحبهُ

حتى إذا الليلُ تَولى مغربهُ وَسَطَعُ الصُّبْحِ وَلاح كَوكبهُ

* فحط عند رحله وسيبه قال فالتفت، فإذا هو ببكر فشد عليه رحله وركبه، فلما قرب الصبح عرف المكان فقال:

يا صَاحِبَ البِكْرِ قَدْ أُنجيتَ مِنْ ضَررٍ ومن فَيافٍ يُضِلُّ المدلجُ الهادي

إلا أتيتَ لنا بالصُّبْحِ نعرفهُ مَنْ الذي جَاد بالغَمَّاء بالوادي

فارجع حميدا فقد بلغتَ مأمناً بُوركتَ مِنْ ذَى سَام رَامحٍ عادي

* فأجابه يقول هذه الأبيات شعر:

أنا الشجاعُ الذي أبصرتهُ وَمَضَى وَمنزلي تره مِنْ موردٍ صَادي

فَجُدْتَ بالماءِ لما ضَنَّ حاملهُ رَويتَ هَامي، ولم تَبخلْ بإنكادي

أنا الشجاعُ الذي أرويتني عَطَشَا يَوم الهجير على الرَّمْضَاءِ بالوادي

الخيرُ يبقى، وإنْ طَالَ الزمانُ بِهِ والشَّرُّ أخبثُ ما أوعيت مِنْ نادي

❖ ❖ ❖

---

(١) الشجاع: ذكر الأفعى.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

في الحِلم وطيب ثـمرته والعفو وحسن عاقبته

* قيل للأحنف ابن قيس ممن تعلمت الحلـم؟ قـال مـن قيس بـن عاصـم رأيته يوماً قاعداً بفناء داره محتبيا بحمائل سيفه يحدث قومه، فإذا أتاني برجل مكتوف ورجل مقتول / ٥٣/ فقيل له هذا ابن أخيك قد قتل ابنك قال فو الله ما قطع كلامه، ثم التفت إلى ابـن أخيه، وقال له يابن أثمت بربك ورميت نفسك بسهمك وقتلت ابـن عمك، ثـم قـال لولده الآخر يا بني قم فادفن أخاك وحل أكتاف ابن عمك وسق إلى أمك مائة ناقة دية ولدها فإنها غريبة منا.

* وروي عنه أنه جلس يوماً في داره على المائدة ومعه ولد له صغير فجاءت الجارية بسفود عليه شواء حار فسقط من يدها على ابنه فلم يُخطئ قلبه فمات فدهشت الجارية وانقطع لونها، فقال لا بأس عليكِ أنت حرة لوجه الله تعالى.

* ولما حج معاوية ابن أبي سفيان لم يترك شيئاً إلا قدم به إلى مكة، والمدينة من دراهم ودنانير وطيب ودواب، فلما وصل إلى المدينة قسم على أهلها، وأكثر وبعث إلى رجل من الأنصار بألفي درهم وعشرة أثواب، والرجل الأنصاري من أهل بدر فأتاه الرسول بذلك العطاء فغضب وقال: أما وجد معاوية من يرسل إليه بمثل هذا العطاء غيري اردده عليه، فقال الرسول لا أقدر فدعا الأنصاري ابنا له، وقال يا بُني أسألك بحقي منك إلا رددت هذا العطاء على معاوية وضربت به وجهه فأخذها ابن الأنصاري، وأتى إلى معاوية فعرف معاوية الشر بوجهه، فقال ما تريد قال إن أبي يُقريك السلام، ويقول لك المثلي يرسل إليه هذا العطاء؟

* قال معاوية من الرسول إلى أبيك قال فلان قال قاتله الله إنما هو أخطاء ودفع لأبيك عطاء رجل غيره.

* ثم قال يا غلام عَلَيَّ بعشرة آلاف درهم وثلاثين ثوب وحُلة صيف، ووصيفة فعجل بذلك، وأحضر الجميع، فقال يابن أخي خذ الجميع واعتذر من أبيك وعرفه /٥٤/ بخطأ الرسول.

* فقال يا أمير المؤمنين إن للولد حقا، وله أمر مطاع، وقد أمرني بشيء، فقال معاوية ما هو يابن أخي؟ قال إنه لما دفع إلي الثياب قال بحقي عليك إلا ضربت بها وجهه.

* ونزل بعض الشطار إلى دار خلف بن أبي أيوب، وهو واقف يصلي بالليل فجمع اللص جميع ما في بيته من قماش وغيره، ثم شده كارة[1] وحملها على رأسه، وخلف ينظر إليه، ولا يكلمه فخرج الشاطر فأتى الحائط فلم يقدر على النهوض، فقال له خلف يابن أخي خُذ المفتاح وافتح الباب فلعلك محتاج، فقال اللص إن مثلك لا يؤذى وترك القماش وتاب إلى الله تعالى.

* وَسَبَّ رجل المهلب، وأفحش في سبه، وهو ساكت لم يتكلم فرى رجل فسمعه يسبه فرد على السفيه وخاصمه، وأنكاه، ثم التفت إلى المهلب، وقال ألا انتصرت لنفسك، فقال المهلب يابن أخي وجدت النصرة في الحلم، ولولا حلمي لما انتصرت أنت لي.

* وكان لعبد الله بن الزبير أرض مجاورة لأرض جارية ابن أبو سفيان، وكان فيهم عبيد الكمل أرض لعمارتها فدخل عبيد سارية في أرض عبد الله بن الزبير واغتصبوا منها قطعة فكتبة عبد الله بن الزبير إلى معاوية.

* أما بعد يا معاوية فإن عندك عبيد اغتصبوا أرض فمرهم بالكف عنها، وإلا كان لي ولك شأن، فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله ابن الزبير دفعه الى ولده يزيد، فلما قرأه قال ما تقول يا يزيد قال أرى أن تبعث له جيشا أوله عنده وآخره عندك يأتيك برأسه وتستريح منه.

---

(١) الكارة: حزمة كالبالة من القطن.

* قال عندي خير من ذلك يا بني قال علي بدواية وقرطاس فكتب فيه وقفت على كتاب حواري رسول الله (ﷺ) وساءني/ ٥٥/ ما ساءه، والدنيا، وما فيها هينة في جنب رضاك، وقد كتبت على نفسي مسطورا أشهدت فيه وجماعة من المسلمين إنَّ الأرض، والعبيد الذين فيها ملك دون ملكي فضمها إلى أرضك، والعبيد إلى عبيدك، والسلام.

* فلما قرأها عبد الله بن الزبير كتب إليه وقفت على كتاب أمير المؤمنين لا أعدمني الله بقاءه، ولا أعدمه هذا الرأي الذي أحله ذي المجد، والسلام.

* فلما وقف معاوية على الكتاب ناوله لولده يزيد، فلما قرأه تهلل وجهه فرحاً، فقال له يا بني إذا بليت بشيء من هذا الداء فداوه بمثل هذا الدواء، وإنا لقوم لم نرى في الحلم إلا خيراً.

* قيل إن المهلب ابن أبي صفرة هو يحيى من حران فرآه شاب من أهل الحي، فقال هذا المهلب قالوا نعم قال، والله ما يساوي خمسمائة درهم، وكان المهلب رجل أعور فسمعه المهلب، فلما كان الليل أخذ المهلب في كمه خمسمائة درهم، وأتى إلى الحي فارتقب الشاب إلى أن رآه فأتى إليه، وقال افتح حجرك ففتح الشاب حجره فسكب فيه ذلك القدر، وهو الخمسمائة درهم، وقال خذ قيمة عمل المهلب، ووالله يابن أخي لو قومتني بعشرة آلاف دينار ولأتيتك بها فسمعه شيخ من أهل الحي فقال، والله ما أخطأ من جعلك سيداً.

* قال النبي (ﷺ): **«أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم، وما أبي ضمضم يا رسول الله قال رجل كان في من قبلكم إذا أصبح يقول اللهم إني أتصدق اليوم بعرقي على من ظلمني»**.

* وقال (ﷺ): **«ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهن فلا يعتدن بشيء من عمله تقوى تحجزه عن معاصي الله عز وجل وحلم يكف به السفيه وخلق يعيش به في / ٥٦/ الناس»**.

* وقال النبي (ﷺ): «**إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى مُنَادٍ أين أهل الفضل فيقول ناس يسير فينطلقون سراعا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقولون إنا نراكم قليلا ما كان فضلكم فيقولون كنا إذا ظُلمنا صبرنا، وإذا أُسيءَ إلينا غفرنا، وإذا حمل علينا حملنا فيقال لهم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين**».

* وقال بعض العلماء: الحِلم أرفع من العقل قيل له، ولم ذلك؟ قال لأن الله تعالى تسمى بالحلم، ولم يتسمى بالعقل.

* وأحضر بين يدي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) رجل سكران فأمر أن يحد فشتمه ذلك الرجل السكران فرجع عمر (رضي الله عنه) عن ضربه فقيل له لم تركته يا أمير المؤمنين حين شتمك؟ قال إنه لما شتمني غضبت فلو ضربته لكان ذلك لغضبي لا لربي.

* قيل كان معن بن زائدة رجلا حليماً سخياً كريماً جوادا كثير العقل سديد الرأي فشجر بين جماعة من العرب أنه لا يقدر أحد من خلق الله تعالى على إغضابه لكثرة عقله وحلمه، فقال أعرابي أنا أقدر على إغضابه قالوا إنك إن فعلت ذلك كان لك علينا مائة ناقة حمراء فدخل عليه حين جلوسه وامتنع بأن يسلم عليه، ثم أنشد الأعرابي هذه الأبيات:

أَتنكرُ إذ لِباسُكَ جِلْدُ شَاةٍ ... وإذْ نَعلاكَ مِنْ جِلد البعيرِ

* فقال معن أذكر ذاك، ولا أنساه، فقال الأعرابي:

فَسُبحانَ الذي أعطاكَ مُلكا ... وَعَلَّمَكَ الجلوسَ على السريرِ

* فقال معن ذلك من فضل الله لا من فضلك يا أخا العرب فقال:

فلا، والله ما إن عِشْتُ يَوماً ... على معن أسلم بالأمير / ٥٧/

* فقال: السلامُ سِنةٌ من سِنن الإسلام إن أتيت بها أجرت وان تركتها أثمت، فقال الأعرابي:

ولا أسكن بلاداً أَنْتَ فيها ... ولو جُزْتَ الشامَ مع الغورِ

* فقال يا أخا العرب إن سكنت لم تلقَ مِنَّا إلا خيراً، وإن رحلت فمصحوب بالسلامة، فقال الأعرابي:

فَجُدْ لي يا ابنَ زائدةَ بشيءٍ ... فإني قَدْ عَزمتُ على المسيرِ

* فقال يا غلام أعطه ألف دينار يستعين بها على بُعده عنا ورحيله من أرضنا، فقال الأعرابي:

قليلا ما مننت به، وإني ... لا أطمع مِنكَ بالشيء الكثير

* قال يا غلام أعطه إلف دينار أخرى، فقال الأعرابي:

فَثلثٌ إذ مَلكتَ الأرضَ طُرًّا ... بلا عَقْلٍ، ولا لُبٍّ خَطيرِ

* فقال معن: يا غلام أعطه إلف دينار أخرى، فقال الأعرابي: أيها الأمير إني لمختبر لحلمك بما سمعت منى أما، والله لقد جمع الله فيك من الحلم، والجود ما لو قسم على أهل الأرض لوسعهم، فقال معن: يا غلام كم أعطيته على نظمه قال ثلاثة آلاف دينار قال، وأعطه على نثره ثلاثة ألاف دينار أيضا فانصرف الأعرابي بالمال شاكرا، وهو يقول:

فَأَنْتَ الجُودَ، والإحسانُ طُرّاً ... وفي الإعطاء كالبحرِ الغزيرِ

* وحكى سليمان الوراق قال ما رأينا أعظم حِلما من المأمون بن الرشيد وذلك إنني دخلت علية، وفي يده فص مستطيل من ياقوت أحمر له شعاع قد أضاء/ ٥٨/ له المجلس، وهو يقلبه بيد هو يستحسنه، ثم دُعي برجل صائغ، فقال اصنع هذا الفص كذاو كذا وحد له فيه وعرفه كيف يصنع به فأخذه الصائغ وانصرف، ثم عدت إلى المأمون بعد ثلاث أيام فذكر الفص فاستدعى بالصائغ فأتى به، وهو يرغد.

* وقد انقطع لونه، فقال المأمون ما فعل بالفص فتلجلج الرجل، وهو لم يطق الكلام ففهم المأمون عنه فوله وجهه وكأسه حتى سكن روعه، ثم التفت إليه، وأعاد القول، فقال الأمان يا أمير المؤمنين قال لك ذالك فأخرج الفص على أربع قطع، وقال يا أمير

المؤمنين انه سقط من يدي على السِّندان فهو كما ترى، فقال المأمون لا بأس عليك اصنع منه أربع ولطف له الكلام حتى ظننا أنه كان يشتهي الفص على أربع خواتم قطع، فلما خرج الرجل من عنده قال أترون كم قيمة الفص؟ قلنا لا قال اشتراه أمير المؤمنين الرشيد بمائة ألف وعشرين ألف درهم.

* قال لقمان الحكيم يا بني أخلص طاعة الله عز وجل حتى لا يخالطها شيء من معاصيه، ثم زين طاعة الله عز وجل باتباع أهل الحق بعلم محكم لا يخالطه سقط، ثم اجمع علمك وحصنه بحلم لا يخالطه حمق، ثم اصرر حلمك بلين لا يخالطه جهل، ثم سدد لينك بحزم لا يخالطه ضياع.

* ثم امزج حزمك برفق لا يخالطه عنف، ثم قَوِّ رفقك بفقه لا يخالطه غِي، ثم أكمل فقهك بإيمان لا يخالطه كفر، ثم زين إيمانك بيقين لا يخالطه شك، ثم زين يقينك بنصح لا يخالطه غش، ثم زين نُصحك بعمل لا يخالطه عجز، ثم طَيِّبْ عملك بقصد لا يخالطه فخر، ثم أعن قصدك بكيس لا يخالطه ضعف ثم/ ٥٩/ زين كيسك بإخلاص لا يخالطه ريب، ثم زين إخلاصك بصدق لا يخالطه كذب، ثم زين صدقك بإحسان لا يخالطه فحش، ثم زين إحسانك بمعروف لا يخالطه منكر.

* ثم زين معروفك بنفقة لا يخالطها إسراف، ثم زين نفقتك بإعطاء لا يخالطه تبذير، ثم زَيِّنْ عطاءك بطيب نفسكٍ لا يخالطه من، ثم استبق من الأخلاق الخالصة من أضدادها في استقامة لاتردك عن ذلك رغبة ولأرهبه واتق أخلاق الأحمق في محاسن أمره فكيف في مساوئه.

❖ ❖ ❖

الفصل الخامس

في الخلاص من يد الملوك وذوي الأقدار بالبلاغة وحسن الاعتذار

* قل أحمد بن أبي داود ما رأيت رجلاً عرض على الموت ورأى النطع مفروشا، والسيف مسلولا، ولم يكترث لذالك، ولا عدل فيه عما أراد إلا تميم ابن جميل، وقد كان خرج على المعتصم في أيام دولته ونزع يده عن الطاعة وانقطع إلى بعض النواحي، وكان قد عظم أمره على المعتصم، ولقد رأيته.

* وقد جيء به مكتوفاً أسيراً، وقد اجتمع الناس من الآفاق، والنواحي ينظرون إليه كيف يقتله المعتصم، وكان المعتصم قد جلس له مجلساً منكرا، وأمر الناس بالدخول ودخل تميم وحضر السياف وفرش النطع، وكان تميم جميل الوجه تام الخلقة عذب المنطق فرآه المعتصم غير دهش، ولا مكترث لما نزل به فأراد إن يستنطقه ليعلم أين عقله في ذلك الوقت.

* فقال له إن كان لك عذر فآتِ به، فقال أما إذا أذن أمير المؤمنين فالحمد لله الذي جبربك صدع الدين، وألم بك شعث المسلمين/ ٦٠/ ، وأنار بك سبيل الحق، وأخمد بك شهاب الباطل إن الذنوب يا أمير المؤمنين لتخرس الألسنة الفصيحة ولتصدع الأفئدة الصحيحة، والله لقد كبر الذنب وعظمت الجريرة وانقطعت الحجة وساء الظن، ولم يبق إلا عفوك وانتقامك، وأنت إلى العفو أقرب، وهو بك أشبه، وأليق، ثم أنشد هذه الأبيات[1]:

أَرى الموتَ بَيْنَ النَّطْعِ، والسيفُ كامناً ... يُلاحظني الموتُ مِنْ حَيْثُ لا أتلفتُ

وَأكثرُ ظَني أنكَ اليومَ قاتلي ... وأيُّ امرِئٍ مما قضى اللهُ يَفْلَتُ

(١) الأبيات في ديوان قيس بن الرقيات ص ٩١.

وَمَــنْ ذَا الــذي يــأتي بِعُــذْرٍ وَحُجَّــةٍ وَسَــيفُ المنايــا بَــيْنَ عَينيــه مُصْــلَتُ
وَمَــا جَزَعــي مِــنْ أَنْ أمــوتَ، وإننــي لا أعلــم إنَّ المــوتَ شَيءٌ مُؤقــتُ
وَلَكِــنْ خَلفــي صِــبيةٌ قَــدْ تَــركتهم وأكبــادهم مِــنْ حَسْرَةٍ تَتفتــتُ
كَــأني أراهــم حِــين أَنعــى إلــيهم وقــد لطمــوا تِلــكَ الخُــدودَ وَصَــوَّتُوا
فَــإنْ عِشْــتُ عَاشــوا سـالمين بِغبطــةٍ أَذودُ الــردى عَــنهم، وإنْ مِــتُّ مُوتــوا

* قال فبكى المعتصم حتى ابتلت لحيته، وقال إن من البيان لسحرا، ثم قال، والله ياتميم كاد السيف يسبق العفو، وقد وهبتك لله تعالى ولصبيتك وعفوت عن زلتك، ثم أمر بقناة فعقد الولاية على موضعه الذي كان خرج فيه، ووصله بشيء كثير.

* وَقُدم إلى معن بن زائدة أسرى، وأمر فيهم على السيف فقام إليه رجل منهم، وقال أيها الأمير نحن أسراك ونحن، والله جياع من اثر الطريق، فإذا رأيت إن تطعمنا فلكل كَبْدٍ حَرَّى أجر فأمر معن بطعامهم فأحضرت الموائد وعليها الطعام فاجتمعوا، وأكلوا ومعن ينظر إليهم، فلما / ٦١/ فرغوا قام رجل منهم، وقال أيها الأمير كنا أسراك، وقد صرنا ضيوفك فأنظر ماذا يصنع مثلك بأضيافه فَخَلَّا سبيلهم.

* وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل من أصحاب المختار، فقال أصلح الله الأمير ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يضيء فأتعلق بك، وأقول أي ربي سل هذا لم قتلني؟، فقال مصعب أطلقوه واجعلوا له ما وهبت من عمره في سعة قالوا بماذا قال: أعطوه مائة ألف درهم قال: أُشهدك أيها الأمير إني جعلت نصفها لقيس بن الرقيات قال لم لأنه قال فيك هذه الأبيات:

إنــما مصــعبٌ شِــهابٌ مِــنَ الله تَجَلَّــتْ عَــنْ وَجهــهِ الظلــماءُ
مُلكــهُ مُلــكُ رَحمــةٍ لَــيسَ فيــه جَــبروتٌ، ولا بــه كِبريــاءُ
يتقــي اللهَ في الأُمــورِ، وقــد أفــ لَــحَ مَــنْ كَــانَ هَمُّــهُ الإتقــاءُ

* أمر الحجاج بقتل جماعة أسرى فقتل منهم جماعة، فقال رجل منهم، وقد عرض على القتل لا جزاك الله عن السنة خيرا يا حجاج إن كنا أسأنا في الذنب فوالله ما أحسنت في العفو فإن الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤] فهذا قول الله تعالى في الكفار فكيف في المسلمين، وقد قال الشاعر:

وما نَقْتُلُ الأسرى، ولكن نَفُكهم إِذَا أَثقل الأعناقَ حَمْلَ القَلائدِ

* فقال الحجاج: أُفٍ لهؤلاء الجيف، والله لو أنهم قالوا مثل ما قال هذا الرجل/ ٦٢/ ما قتلت أحداً منهم، ولكن أطلقوا بقيتهم.

* وقال رجل لبعض الملوك، وقد حضره ليعاقبه على جناية جناها أنا ممن لا يحاجك عن نفسه، ولا يغالطك في، ولا يلتمس رضاك إلا من جهة عفوك، ولا استعطافك إلا باعتراف بالذلة فاستحسن منه ذلك وعفى عنه، وأمر له بجائزة.

* وأقبل المنصور يوما راكباً، والفرجُ بن فضالة جالس عند بابه ومعه جماعة فقام الناس كلهم، ولم يقم فراه المنصور فاشتد غضبه ودعا به، فقال ما منعك إلى القيام مع الناس؟ قال: خِفْتُ أن يسألني الله تعالى لم فعلت، ويسألك لم رضيت، وقد كرهه النبي (ﷺ) فسكن غضب المنصور وانشرح.

* وخرج رجل على سليمان بن عبد الملك فسلم منه، ثم ظفر به سليمان في وقت آخر فعفى، ثم خرج على سليمان أيضا فنجي منه، ثم ظفر به أيضا فعفي عنه ثلاث مرات، ثم أمر بضرب عنقه، فقال الرجل الله الله يا أمير المؤمنين، فقال سليمان أليس قد عفوت عنك، ثم عفوت، ثم عفوت، فقال الرجل أليس قد أظفرك الله بي، ثم أظفرك، ثم أظفرك قال له نعم، والحمد لله، ثم خلى سبيله.

* ولما ولي الحجاج بن يوسف قال على بالمرأة الحرورية، فلما وقفت بين يديه قال لها أنت بالأمس في وقعة ابن الزبير تحرضين الناس على قتل رجالي ونهب أموالي قالت قد كان ذلك فالتفت الحجاج إلى وزرائه، وقال ما ترون فيها؟ قالوا: عجل قتلها فضحكت

المرأة فاغتاظ لذلك الحجاج، وقال ما أضحكك؟ قالت: كان وزراء فرعون خير من وزرائك هؤلاء فالتفت الحجاج إلى وزرائه فرآهم قد خجلوا، فقال لها كيف ذلك؟ قالت: لأنه استشارهم في قتل موسى فقالوا ارجه / ٦٣/ ، وأخاه وانظره إلى وقت آخر وهؤلاء يسألونك تعجيل قتلي فضحك الحجاج، وأمر لها بعطاء، وأطلقها.

* وحضر الهرمزان الفارسي بين يدي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عنه مأسوراً فدعاه إلى الإسلام فأبى فأمر بقتله فقال: يا أمير المؤمنين قبل أن تقتلني اسقني شربه من الماء، ولا تقتلني ظمآناً فأمر عمر بقدح مملوء ماء، فلما صار القدح في يد الهرمزان، فقال أنا آمن حتى أشربه يا أمير المؤمنين قال عمر نعم لك الأمان حتى تشرب هذا الماء فألقى الماء من يده فأراقه، ثم قال الوفاء الوفاء يا أمير المؤمنين.

* فقال عمر دعوه حتى ننظر في أمره، فلما رفع عنه السيف قال أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد رسول الله قال له عمر لقد أسلمت خير إسلام فما أخرك قال خشيت أن يقال عني إنني أسلمت خوفا من السيف.

* فقال عمر (رضي الله عنه) إن لفارس لحلوماً استحقت ما كانت فيه من الملك، ثم إن عمر بعد ذلك كان يشاوره في إخراج الجيوش إلى أرض فارس، ويعمل برأيه.

* سرق شاب سرقه فأتى به إلى المأمون فأمر بقطع يده فقدم لتقطع يده، فقال

يدي يا أمير المؤمنين أُعيذها بعفوك أنْ تلقى مَكانك شينها

فلا خَيْرَ في الدنيا، ولا حَاجَةً بها إذا مالشمالُ فارقتها يَمينها

* وكانت أم الشاب واقفة عند رأسه فبكت وقالت يا أمير المؤمنين ولدي، وواحدي ناشدتك الله إلا رحمت قلبي وهديت لوعتي وجدت بالعفو عن من استحق العقوبة، فقال المأمون: هذا حد من حدود الله تعالى قالت يا أمير المؤمنين اجعل عفوك عن هذا الحد ذنبا من الذنوب التي/ ٦٤/ يستغفر الله تعالى منها فَرَقَّ المأمون لها وعفى عن ولدها.

* وأُتي عبد الملك بن مروان برجل من بني مخزوم، وكان من أصحاب (ابن) الزبير، فلما حضر بين يديه قال عبد الملك أليس الله قد ردك إلى بئس المرد رجع بك إلى بئس المرجع قال يا أمير المؤمنين إن الله تعالى ردني إليك ورجع بي إلى مجلسك فان كان الله قد ردني إليك بئس المرد، وأرجعني إلى سوء المرجع فأنت أخبر بنفسك، فقال عبد الملك أطلقوه، وأمر له بجائزة.

* وخرج على الرشيد رجل خارجي فانهض إليه الرشيد جيشاً فظفر به فأحضره بين يديه، فقال له الرشيد: ما تريد أن أصنع بك؟ قال الذي تريد أن يصنع الله بك إذا أوقفك بين يديه فأطرق الرشيد ساعة، وقال خَلوا سبيله، فلما خرج من بين يديه قال له من حضره يا أمير المؤمنين أنفقت أموالك، وأتعبت رجالك، وأطلقته بكلمه واحده لا يأمن أمير المؤمنين أن يتجرأ عليه أهل الشرق قال ردوه، فلما مثل بين يديه علم أنهم تحدثوا فيه، فقال يا أمير المؤمنين لا تطع في أسيرك أحدا فإن الله تعالى لو أطاع فيك غيرك ما استخلفك ساعة واحده، فقال خلوا سبيله لا يعاودني أحد فيه.

* ودخل عماره بن حمزة على المنصور فأجلسه في صدر المجلس فقام رجل، وقال مظلوم يا أمير المؤمنين قال من ظلمك قال عماره بن حمزة الذي أجلسته في صدر المجلس غصب لي ضيعه، فقال المنصور قُمْ يا عمارة فاستوضحه في المحاكمة إنه خصمك قال عماره ما هو خصمي يا أمير المؤمنين قال وكيف ذلك؟ قال: إن كانت الضيعة له فلست أنازعه فيها وان كانت لي فقد/ ٦٥/ وهبتها له، وهي ملكه دوني، ولا أقوم من مجلس شرفني به أمير المؤمنين قال فاستحسن أمير المؤمنين واستحوذ عقله.

* وحدث أحمد بن موسى قال ما رأيت رجلاً أثبت جنانا من رجل رفع فيه عند المنصور قال لأنه عنده ودائع، وأموال وسلاح لبني أمية فأمر المنصور حاجبه الربيع فاحضر بين يديه، فقال المنصور قد رفع لنا انه عندك ودائع، وأموال وسلاح لبني أمية فاخرج لنا منها واحمل جميع ذلك إلى بيت المال، فقال الرجل يا أمير المؤمنين أنتم وارث بني أمية قال لا فوصي أنت قال لا، فلما تسأل عن ذلك فأطرق المنصور ساعة.

* ثم قال إن بني أمية ظلموا الناس وغصبوا أموال المسلمين، وأنا آخذها فأردها إلى بيت مال المسلمين قال الرجل يحتاج أمير المؤمنين إلى إقامة بَينةٍ يقبلها الحاكم إن المال الذي لبني أمية هو الذي في يدي وانه هو الذي اغتصبوه من الناس، وأمير المؤمنين يعلم أن بني أمية كانت معهم أموال لأنفسهم غير أموال الناس الذي اغتصبوها على ما يزعم أمير المؤمنين قال فسكت المنصور ساعة.

* ثم قال يا ربيع صدق الرجل ما يجب لنا عليه شيء، ثم قال للرجل ألك حاجه قال نعم قال ما هي؟ قال: أن تجمع بيني وبين من سعى بي إليك فوالله يا أمير المؤمنين ما لبني أمية عندي وداعة، ولا مال، ولا سلاح، وإنما لما حضرت بين يدي أمير المؤمنين وعلمت ما هو عليه من العدل، والإنصاف واتباع الحق واجتناب الباطل، وأن هذا لا يجوز ما أيقنت إن هذا الكلام الذي صدر مني هو أنجح، وأصلح لما سألني عنه، وأقرب إلى الخلاص، فقال المنصور للربيع أجمع بينه وبين الرجل الذي اتهمه فمسكه، وقال هذا أخذ لي خمسمائة دينار وهرب ولي عليه مسطور بها فأحضرها بين / ٦٦/ يدي أمير المؤمنين فاستنطق الرجل فاقر بالمال في ذمته.

* فقال الرجل يا أمير المؤمنين قد وهبتها له لأجلك وادفع له خمسمائة دينار أخرى لأجل حضوري مجلس أمير المؤمنين فاستحسن المنصور فعله، وكان كل وقت يقول يا ربيع ما رأيت من حجتي مثله.

* وحضر الشعبي في مجلس مصعب بن الزبير، وقد أتى بقوم فأمر بعقوبتهم قال الشعبي أيها الأمير إنَّ أول من اتخذ الحبس كان حكيما، وإنك على العقوبة أقدر منك على صرفها بعد وقوعها فأمر مصعب بحبسهم، ثم نظر في أمرهم، فإذا هم براء فأطلقهم.

* وأُتِي المتوكل محمد بن النقيب، ووزيره ابن الديراني، وكان قد خرج على المتوكل واستوزر ابن الديراني، فلما مثل بين يديه قال المتوكل ماح ملك على ما فعلت يا محمد؟ قال الشقوة يا أمير المؤمنين واني بك لظنين، ثم قال:

أبا الناس ألا إنَّكَ اليومَ قَاتلي إِمامُ الهُدى، والعفو بساحرِ أَجملُ

تَطـــاولَ ذَنبــي عِنْــدَ عَفــوِكَ قِلَّـــةٌ   فَجُــدْ لي بِعَفْــوٍ مِنْــكَ فــالعفوُ أَفضــلُ
فَإنــــكَ خَـــيرُ السَّـــابقين إلى التقـــى   ولا شَــــكَّ إنَّ الجـــودَ للمـــرء أكمــلُ

* فقال المتوكل خلوه، ثم قدم ابن الديراني، فقال اضربوا عنقه، فقال سبحان الله يا أمير المؤمنين تعفو عن الرأس وتقطع الذنب قال دعوا الآخر فخلاهما جميعاً، وكتب محمد بن الزيات، وهو في السجن، وقد اشتد به الحال رقعه للمتوكل مكتوب فيها[1]:

هـــي السـبيلُ فَمِـــنْ يَـــومٍ إلى يَـــومٍ   كَفرحـــةِ الحـــالمِ المسرورِ بـــالنومِ
لا تَعْجَلَـــــنَّ رُويـــــدا إنهـــا دُولٌ   دُنيـــا تُنْقَـــلُ مِـــنْ قَـــومٍ إلى قَـــومِ
إنَّ المنايـــا، وإنْ أَصـــبحتْ فرعـــه   تَحـــومُ حَولـــكَ حَومـــا أيـــما حَـــومِ

* فلما قرأها المتوكل رَقَّ وبكى، وأمر بإطلاقه فذهبوا إلى السجن فوجدوه ميتا / ٦٧/ ، وكان يزيد ابن المهلب، والياً على خراسان، وكان حسن الوجه جميل الصورة فانصرف منها وتولى قتيبة، وكان سمج الوجه فقيل فيه هذه الأبيات:

كانـــت خُراســـان أرضـــاً إذ يزينهـــا   وكـــل بَـــابٍ مِـــنَ الخـــيراتِ مَفتـــوحُ
فَبُـــدلتْ بَعـــدهُ قِـــرْدٌ يَطـــوفُ بهـــا   كَـــأنما وَجهـــهُ بالخـــلِ مَنضـــوحُ

* فبلغ ذلك قتيبة فطلبه فهرب منه ومضى الشاعر إلى أم قتيبة، فأخذ منها كتاباً بالوصية به وقدم به، فلما أدخل عليه قال بأي وجه تلقاني قال بالوجه الذي ألقى به ربي عز وجل قال إحسانه علي أكثر من إحسانك ومخالفتي له أكثر من مخالفتك فضحك وتركه.

* قيل إن المأمون رحمة الله عليه أشرف يوماً من قصره فرأى رجلاً قائماً وبيده فحمة، وهو يكتب بها على حائط القصر، فقال المأمون لأحد غلمانه أنزل إلى ذلك الرجل فأمسك بيده واقرأ ما كتب، وأتني به فنزل الغلام فأدرك الرجل فقبض على يده وقرأ ما كتبه على الحائط فوجده قد كتب عليها البيتين:

---

(١) ديوان محمد بن عبد الملك الزيات ص ٢٨٢، ولم يرد البيت الثالث.

يـا قصرُ جُمِـعَ فيـكَ الشُّـؤمُ، واللـؤمُ مَــنْ يُعشــعشْ في أركانــك البُــومُ
يَـومَ يُعشـعشُ فيـك البُـومُ مِـنْ فَرَحـي أَكــونُ أَول مَــنْ يَنعــاكَ مَرغــوم

* فقال لك أجب أمير المؤمنين، فقال له الرجل سألتك بالله تعالى لا تذهب بي إليه قال إنه رآك فقبض عليه حتى مثل بين يديه، وقال وجدته قد كتب كذا وكذا وذكر البيتين، فقال المأمون، ويلك ما حملك على هذا؟ فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إنه لا يخفى عنك ما حواه قصرك هذا من خزائن الأموال، والحلي، والحلل، والطعام، والشراب، والفراش، والجوار، والخدم فمررت عليه، وأنا في غاية من سوء الحال من جوع وعطش ولي يومان ما استطعمت فيها بطعام فوقفت ساعة وفكرت في نفسي وقلت/ ٦٨/ هذا القصر عامر، وأنا جائع فلا فائدة له فلو كان خربا ومررت به على تلك الحالة لم أعدم رُخامة وخشبة ومسماراً أبيعه، وأتقوت به، وما علم أمير المؤمنين إنه قد قيل شعر:

إذا لم يَكــنْ للمــرء في دَواة أمــرهِ نَصــيبٌ، ولا حَــظٌّ دَعَــا بزوالهــا
ولاذاكَ عَــنْ بُغْــضٍ، ولا عنــه محبــة ولكــن يُرْجَــى نَفعــهُ في انتقالهــا

* فقال المأمون يا غلام أعطه ألف دينار، ثم قال له يا هذا هي لك في كل سنة ما دام قصرنا عامراً بنا.

* وخطب الحجاج يوماً فشكي سوء طاعة أهل العراق، فقال جامع المحاربي إما أنهم لو أحبوك لأطاعوك على أنهم ما سبقوك لنسبك، ولا لبلدك، ولا لذات يدك فدع ما يباعدهم عنك إلى ما يقربهم إليك، والتمس العافية ممن دونك تعطها ممن فوقك وليكن إيقاعك بعد وعيدك.

* وقال الحجاج: والله ما أراني أرد بني اللكيعة إلا بالسيف، فقال أيها الأمير إنَّ السيف إذا لاقى السيف اذهب لخياره قال الحجاج الخيار يومئذ لله قال أجل ولكنك لا تدري لمن يجعله الله قال يا هذا إنك من محارب فقل جامع هذا البيت شعر:

وللحــــربِ سَـــمينا وكنـــا محاربـــاً إذا مـا الفتـى أمسـى مـن الفِعـل أحمـرا

* فقال الحجاج: والله لقد هممت أن أخلع لسانك، وأضرب به وجهك قال جامع إن صدقناك أغضبناك، وإن كذبناك أغضبنا الله تعالى وغضب الأمير أهون علينا من غضب الله عز وجل.

* قيل كان الحجاج اعتمد في ولايته بالعراق أن جعل له في الشهر يوم بؤس، ويوم نعيم يركب فيها وآلى على نفسه أن من لقيه في / ٦٩/ يوم بؤس قتله ولو كان ابنه، ومن لقيه يوم نعيمه أنعم عليه ولو كان عدوه، وأقام على ذلك مده، فبينما الحجاج خرج في يوم بؤسه، وإذا هو بغلام لم يبلغ الحلم، فقال: لمن بين يديه خذوا هذا الغلام فأوجؤه فقال: ولم أيها الأمير من غير إساءة مني إليك؟ فقال: لأني لقيتك في يوم بؤسي، وهي سِنَّة لا يمكنني نسخها، فقال له: أيها الأمير الذي ينالك من الإثم، والعقاب وسوء السيرة أعظم من ترك هذه السنة الردية فرحم صغر سني وثكل أمي.

فقال الحجاج: والله لقد دخل لك في قلبي رقه ما ظننت أنها تكون لأحد، وأرى لك فصاح هو أنا أُنشدك من الشعر فإن أجزته تركتك، فقال له الصبي قل وبالله التوفيق، فقال الحجاج:

قَـــــومٌ بِــــــنُعْمَانَ عَرَفْنَـــــاهُم سَـــــقَاهُمُ اللهُ مِـــــنَ النَّـــــو(١)

* فأجابه الصبي من غير توقف:

نَـــــوٌّ المســـــكين فَقَـــــراهم بَـــــرْقُ يـــــرى أغراضـــــه ضَـــــوّ

* قال: فبهت الحجاج إليه وطاش عقله، وقال، ويلك ضَوٌّ ماذا؟، فقال الصبي:

ضَـــــوٌّ بَـــــرْقٍ لاحَ في ليلـــــةٍ مُقفـــــرةٌ مُعتمـــــة اللـــــو

* قال: فكاد الحجاج يخرج من ثيابه، وأطرق خجلاً، وقال لخدمه مامعكم فقالو هذه الدنانير، فقال ادفعوها للصبي فأخذها وانصرف.

---

(١) الأبيات كاملة في نهاية الأرب بشكل مفصل ١٠/ ٢٤١.

الفصل السادس

في الوفود على الخلفاء، وأهل الكرم، والوفاء

* قال أحمد بن عمر الكوفي أن جبلة بن أيهم الغساني كتب إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من الشعر بطلب أُذنه في القدوم عليه مسلما فسر عمر بذلك، وكتب عمر إليه أن يقدم، ويسلم، وله مالنا وعليه ما علينا فخرج جبله في جمع من سائر العرب، فلما قرب من المدينة ألبسَ القوم حُللا من الذهب ومطارفاً موشاة وَجَلَّلَ الخيل بجلال الأطلس ولبس جبله تاجاً نفيساً، ولم يبق في المدينة أحد حتى خرج النساء، والصبيان وفرح المسلمون بإسلامه وقدومه، وكان يوماً مشهوداً فدخل المدينة، وأسلم، وأقام بالمدينة /٧٠/ وتعلم شرائع الإسلام.

* فلما كان أوان الموسم خرج عمر (رضي الله عنه) وخرج جبله معه يريد مكة، والوقوف بعرفه، فبينما جبله بن الأيهم يطوف بالبيت إذ وطئ إزاره رجل من فزاره فحله فالتفت جبله إلى الرجل فلطمه لطمة هشم بها أنفه فاستعدى الفزاري؟ إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فأرسل عمر إلى جبله فحضر إليه، فقال له ما دعاك إلى ما صنعت بهذا الرجل الفزاوي؟ قال لأنه وطأ على إزاري فحله، ولولا حرمة البيت لأرميت برأسه قال له عمر ما قررت بفعلك فإما أن ترضيه، وإما القصاص قال، أو تقتص له مني، وهو سوقه، وأنا جبله بن الأيهم ملك غسان.

* قال عمر (رضي الله عنه): قد جمعك، وإياه الإسلام فلا فضل لك عليه في القصاص قال جبله فلقد رجوت أن أكون في الإسلام أعز ما كنت في الجاهلية هيهات يا عمر إن فعلت يا عمر أنا أتنصر قال له عمر إن تنصرت ضربت عنقك قال جبله أخرني إلى غد يا أمير المؤمنين قال لك ذلك، فلما كان الليل خرج جبله، وأصحابه من المدينة فلم يزالوا

حتى قدموا قسطنطينة على هرقل فتنصروا فأقطعه من الأراضي، وأوقف عليه من الرباع ما أعرضت عن ذكره مخافة التطويل.

* قال وبعث عمر (رضي الله عنه) إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام فأجابه إلى المصالحة على غير الإسلام، فلما أراد أن يكتب إلى عمر جوابه قال للرسول: اذهب إلى جبله بن الأيهم الذي أتانا من عندكم وتنصر قال فذهب إليه الرسول، فإذا على رأسه من الجنود، والحجاب، والحفدة مالا يوصف فاستأذن عليه ودخل إليه، وإذا هو على سرير من بلور وقوائمه من ذهب، فلما رآني عرفني، وأدناني، وأجلسني على السرير إلى جانبه، وأخذ يسألني عن المسلمين واحدا بعد واحد ورجلاً بعد رجل فأقول له بخير.

* ثم نزلت عن السرير، فقال لم تأبَ الكرامة التي أكرمتك بها/ ٧١/ فقلت إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نهى عن مثل ذلك قال نعم (صلى الله عليه وسلم)، ولكن ثِقْ بنبيك واجلس على ما شئت قال الرسول، فلما سمعته يصلي على النبي (صلى الله عليه وسلم) طمعت في إسلامه وقلت له يا جبله هل لك في الإسلام، والرجوع إليه؟ قال أبعد ما كان مني قلت نعم قد فعل رجل قبلك مثل فعلك وضرب وجوه المسلمين بالسيف وعاد إلى الإسلام وقبل منه، وهو فلان ابن فلان قال جبله لا أعو د إلا أن يزوجني عمر ابنته، وولاني العهد قال الرسول فضمنت له التزويج، ولم أضمن له الخلافة قال.

* ثم دعا بموائدُ طعام فأحضرت أطباق من فضه عليها أصحاف من ذهب فيها الطعام، فقال لي كل فقبضت يدي وقلت إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نهى عن الأكل في مثل ذلك، فقال نعم (صلى الله عليه وسلم).

* ودعا بقصعة من خلنج فأكلت فيها، وكان بحضرته جوار يغنين الشعر وبأيديهم الدفوف، والعود، والأراغل[١]، فقال لي: أتعرف قائل هذا الشعر قلت لا قال هذا شعر حسان بن ثابت الأنصاري كيف حاله؟ قلت له: قد كف بصره قال فأمر لي بكسوة

---

(١) الأراغل: ج يرغول، آلة موسيقية بدائية تصنع من القصب.

ومال ونوق موقورة، ثم قال لي خذ هذه فان وجدت حسانا حيا فسلمها إليه، وإن وجدته ميتا فادفع المال لأهله، وأنحر النوق على قبره وانشد هذه الأبيات:

قصدت الإشراف من أجلِ لَطمةٍ ... وما كان فيها لو صَبَرْتُ ضَررُ

فيا ليتَ أُمي لم تَلدني وليتني ... رَجِعْتُ إلى القَولِ الذي قَال عُمَرُ

وَيَا لَيتني أرعى المخاضَ بِقَفْرةٍ ... وَكُنْتُ أَسيرُ في رَبيعةَ، أو مُضَرُ

* قال الرسول فأخذت الهدية ورجعت إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) / ٧٢/ فأخبرته بصوره الأمر، فقال هل لا ضمنت له ذلك، فإذا فاء على الإسلام وتأنس به قضى الله بحكمه فينا وفيه، ثم ذكرت له قضيه حسان فأنفذ عمر إلى حسان فأقبل وقائد يقوده، فلما دخل حسان قال يا أمير المؤمنين إني لأجد ريح غسان قال نعم هذا رجل قدم من عندهم قال هات يابن أخي ما معك قال الرسول، ومن أعلمك إن معي هديه قال يابن أخي إن جبله كريم من عصبه كريم مدحتهم في الجاهلية فأعطاني، وحلف أن لا يَلْقَ أَحداً يعرفه بمكاني إلا سير لي معه هديه قال فدفعت له المال، والإبل.

* ثم أعادني عمر إلى القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته فعلمت إن الشقاء قد غلب عليه في أُم الكتاب.

* قال الكلبي: لما أفضيت الخلافة لعمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) وفدت عليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء قبله فأقاموا ببابه أياماً فلم يؤذن لهم بالدخول حتى قدم عدي ابن أرطاة على عمر بن عبد العزيز، وكانت له منه مكانة فتعرض له جرير وسأله أن يستأذن عليهم، فقال لهم نعم.

* فلما دخل عدي على عمر قال يا أمير المؤمنين إن الشعراء ببابك لهم أيام لا يؤذن لهم، وأقوالهم باقية وسهامهم مستوية، فقال عمر باعدي مالي وللشعراء قال يا أمير المؤمنين إن النبي (صلى الله عليه وسلم) مدح فأعطى وفيه أسوه لكل مسلم قال، ومن مدحه قال مدحه عباس بن مرداس السلمي فكساه حُلَّة، وقال يا بلال اقطع عني لسانه قال أوما تروى

قوله قال نعم قال عمر قل فأنشد هذه الأبيات[1]:

رأيتــكَ يَــا خَــيرَ البريــةِ كُلِّهَــا نَشَرْتَ كِتابــاً جَــاءَ بــالحَقِّ مُعْلِــما

أَبْنــتَ لَنَــا فيــه الهُــدى بَعْــدَ جَوْرنَــا عَنِ الحَقِّ لما أَصْبَحَ الجَوُّ مُظْلِما / ٧٣/

وَنَــوَّرتَ بالإِســلام أَمِــرَ قُدسـنـا وأطْفــأتَ بالبُرهــانِ جَمْــرَاً مُضَرَّمــا

فَمَــنْ مُبلــغٌ عــن النبــي مُحمــدٍ وكــل اِمْــرِئٍ يُجـزي بــما قَــدْ تَكلــما

أَقَمــتَ سَــبيلَ الحَــقِّ بَعْــدَ اِعوجاجــهِ وكــان قَــديما وَجهــهُ قَــدْ تَهَــدَّمَا

فَعَــلا عُلــواً فَــوْقَ عَــرْشٍ إِلهنــا وكــان جَــلالُ الله أَعــلا، وأَعْظَــما

*وهذه قصيده مشهورة في النبي (ﷺ) يطول شرحها.

* قال عمر فمن في الباب منهم قال عدي يا أمير المؤمنين بالباب منهم عمرو بن ربيعه القرشي، فقال لا قربه الله، ولا حياه أليس هو القائل[2]:

ألا لَيــتَ إني يــوم تــدنو مَنيتــي شَمَمْتُ الـذي مـابين عَينيـكِ، والـدمِ

ويـا ليـتَ سَلْمَى في الـتُّرابِ ضَجيعتي هُنَالِــكَ، أو في جَنَّــةٍ، أو جَهَــنَّمِ

*فليته عدو الله تمناها في الدنيا، ثم رجع إلى العمل الصالح، والله لا دخل على.

* من بالباب غيره؟ قال بالباب جميل بن عمر العدوى قال أليس هو القائل في قصيده له[3]:

ألا ليتنــا نحيــا جميعــاً، وإنْ نَمُــتْ يُـوافي لـدي المـوت ضَريحـي ضَريحهـا

فـما أنــا في طُــولِ الحيــاة براغــبٍ إذا قِيْـلَ قَـدْ سُـوِّى عَليهـا صَـفيحها

*قال اغرب عني به.

---

(١) ديوان العباس بن مرداس ص ١٤٥، ولم يرد البيت الثاني والرابع في الديوان مع اختلاف في رواية الأبيات.

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٥٠١ ط. محيي الدين عبد الحميد.

(٣) ديوان جميل ص٥١

* فمن بالباب غيره قال بالباب كثير عزه قال أليس هو القائل في قصيده له[1]:

رُهْبَانُ مَدْيَنَ، والذين عَهِدتهم   يَبكُونَ مِنْ حَرِّ العَذابِ قُعُودا

لَوْ يَسمعون كَمَا سَمِعْتُ كَلامها   خَرُّوا لِعَزَّةَ خاشِعينَ سُجودا

*عَدِّ عن ذكره.

* من بالباب غيره؟ قال الأحوص الأنصاري قال أبعده الله، وأسحقه أليس هو القائل في قصيدة له، وقد أفسد على رجل جاريته بالمدينة حتى أبقت / ٧٤/ من سيدها[2]:

الله بيني وبين سيدها   يَفُرُّ عني بها واتبعُ

*لا يدخل علي.

* من باب غيره قال هُمام بن غالب الفرزدق قال أليس هو القائل في قصيدة له بالزنا):

هما والثاني من ثمانيين قائمة   كما انقض باز فتح الريش كاسره

فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا   احيي برجا أم قتيل نحاذره

* قال لايدخل علي وهذه قصيدة مشهورة للفرزدق ذكر فيها أعرضت عن ذكرها.

* قال عمر من بالباب غيره؟ قال الأخطل التغلبي قال هو الكافر إذ قال في شعره[3]:

فَلَسْتُ صايم رَمَضَانَ عُمري   وَلَسْتُ بآكلٍ لَحْمَ الأضَاحي

وَلَسْتُ بِزَاجِرٍ جَمَلا بُكورا   إلى بَطْحَاء مَكَّةَ للنجاحي

وَلَسْتُ بِقَائِمٍ كالغير يَدعوا   قُبيلَ الصُّبْحِ حَيَّ عَلى الفلاحي

(١) ديوان كثير عزة ص ٩٧.

(٢) ديوان الأحوص ص ١٢٣

(٣) ديوان الأخطل ص ٧٧٥.

وَلَكِـــنْ سَــأَشْرَبُهَا شَــمُولَا وأســجدُ عِنْــدَ مُنْبَلج الصَّــبَاحِ

* والله لا وطأ لى.

* من بالباب غيره قال بالباب جرير بن الخطفاء قال أليس هو القائل في قصيدة له[1]:

لــولا مَــوْتُ العُيــونِ أريتنــا مُقْــلَ المَهَــا وَسَــوالِفَ الإلْــزامِ

طَرَقَتْـكَ صَـائِدَةُ القُلـوبِ، ولـيس ذا حِـيْنَ الزيـارة فـارجعي بِسَـلامِ

* وان كان ولابد فائذن لجرير فخرج عدى فأذن لجرير فدخل، وهو يقول[2]:

إنَّ الــذي بَعَــثَ النبــي مُحمــدا جَعَــلَ الخلافــةَ في الإمــام العــدلِ

وَسِــعَ الخَلائِــقَ عَدْلُــهُ، ووفــاؤُه حتــى ارْعَــوى فَأقــام مَيْــلَ المَائــلِ

إني لأرجــوا مِنْــكَ خَــيرا عَــاجلا والـنفسُ مُولعـةٌ بِحُـبِّ العَاجـلِ/ ٧٥/

* قال، فلما حضر بين يديه قال يا جرير اتقِ الله، ولا تقل إلا حقاً، فقال هذه الأبيات:

كَــمْ باليمامــة مِــنْ شُــعْثٍا أرملــةٍ ومـن يَتـيمٍ ضَـعيفِ الصوتِ، والنظـرِ

فَمَــنْ عَــزَّكَ يُكْفَــا فَقْــدَ، والــده كــالفرخ في العُــشِّ لم يَـدْرُجِ، ولم يَطـرِ

إنــا لنرجــو إذا مــا الغيــثُ أخلفنــا مِــنَ الخليفــةِ مــا نَرْجُــو مِــنَ المطــرِ

* وهذه قصيدة طويلة اختصرناها فقال، والله يا جرير ما ملك عمر سوى مائة درهم يا غلام ادفعها له ودفع له حلى سيفه فخرج جرير إلى الشعراء فقالوا له ما وراءك؟ قال رجل يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء، وأنا عنه راض.

* قال الشعبي قدمت سودة بنت عمارة على معاوية، فلما دخلت علية وسلمت قال

---

(١) ديوان جرير ص٧٣٧، ولم يرد البيت الثاني في الديوان.

(٢) لم ترد الأبيات في ديوان جرير.

لها كيف أنت يا بنت عمارة؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين قال أنسيت قولك لأخيك يوم صفين قالت: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال:

شَمِّرْ كَفعلِ أخيكَ يَابن عَمارة يَومَ الطِّعَانِ وَمُلتقى الأَقْرانِ

وانصرْ عَلياً، والحسينَ وَرَهْطه وَاقْصِدْ لهندِ وابنها بِهَوانِ

* قالت يا أمير المؤمنين ما مثلي من رغب من حق واعتذر بباطل قد كان مني قال فما حملك على مثل هذا قالت حب علي (رضي الله عنه)، وإتباع الحق قال فما أرى عليك من أثر على شيئاً، قالت: بلى، والله كانت آثاره جميلة وعدله شامل فبالله يا أمير المؤمنين إلا صرفت عني تذكار ما نسى قال هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى قال صدقت ما كان أخي خفي المقام، ولا ذميم المكان كان، والله كما قالت الخنساء:

وَإِنَّ صَخراً لَتأتمُّ الهُدَاةُ كَأَنَّهُ عَلَمٌ في رأسهِ نَارُ

* ثم قالت بالله يا أمير المؤمنين دعنى من مثل هذا قال قد فعلت قُولي حاجتك؟ قالت / ٧٦/ يا أمير المؤمنين إنك أصبحت للناس سيداً ولأمرهم مقلداً، والله سائلك عما أفرضه عليك من حقنا، وأنت مقدم من تبوأ بعزك، ويبطش بسلطانك فيحصدنا حصاد السنبل، ويدرسنا درس البقر قال من هو؟ قالت ابن أرطاة عدي قدم إلى أرضنا فقتل رجالي، وأخذ مالي، ولولا الطاعة لك لكان فينا المنعة له فإن عزلته شكرناك، وإن لم تعزله فقد عرفناك قال لها أتهدديني بقومك، والله لقد هممت أن أردك إليه على كور قَتَبٍ يَنفذُ فيك حكمه فقالت عند ذلك:

صَلى الإلهُ عَلَى رُوحٍ تَضَمَّنَها قَبْرٌ فأصبحَ فِيْه الحَقُّ مَدفونا

قَدْ حَالفَ الحَقَّ لا يبغي به بدلاً فَصَارَ بالحقِ، والإيمانِ مَقرونا

* قال معاوية من هو؟ قالت علي بن أبي طالب قال ما الذي جرى لك معه قالت أتيته في رجل ولاه الصدقات، ولم يكن بيننا وبينه إلا أن ترك الغث، وأخذ السمين فوجدته قائماً يصلي، فلما أحس بي سلم من صلاته، والتفت إلي برحمة ورفق ورأفة، وقال

ألك حاجة؟ فأخبرته الخبر فبكى ورفع يديه إلى السماء، وقال اللهم أنت الشاهد علي وعليهم أني لم آمرهم بظلم خلقك، ولا بترك حقك، ثم أخذ قطعة من جلد، وكتب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم جاءتك موعظة من ربكم فأوفوا الكيل، والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين، وما أنا عليكم بحفيظ.

* إذا قرأت كتابي هذا فاحفظ ما في يديك من عملك حتى يرد عليك من يقبضه منك، والسلام.

* فأصرفه من عمله، وولى علينا غيره / ٧٧/ ، فقال معاوية اكتبوا لها بالعدل، والإنصاف فقالت خاصة، أو لقومي عامة؟، فقال لك خاصة فقالت إنَّ هذا اللؤم عظيم إن كان عدلاً شاملاً، وإلا فأنا كسائر الناس قال معاوية اكتبوا لها ولقومها.

* حدثنا محمد بن عبد الله الخزاعي قال دخلت بكارة الهلالية على معاوية، وكانت امرأة قد كبرت وغشى بصرها وضعفت قوتها بين جاريتين لها فسلمت وجلست فرد عليها معاوية السلام، وقال كيف أنتي يا خالتي؟ قالت بخير يا أمير المؤمنين قال غَيَّرَكِ الدهر قالت هو هكذا ذو غير من عاش كبر، ومن مات قبر، فقال عمرو بن العاص هي، والله القائلة يا أمير المؤمنين[1]:

يا زَيدُ دُونك فاحتفرْ مِنْ دَارنا ... سَيْفاً حُسَاماً في الترابِ دَفينا

قَدْ كُنْتُ أَدخرهُ ليومِ مَسْلَمَةَ ... واليومُ أَبْرَزَهُ الزمانُ مَصُونا

* فقال مروان بن الحكم هي، والله القائلة يا أمير المؤمنين:

أَتُرى اِبْنَ هِنْدٍ للخلافةِ مَالكاً ... هَيْهَاتَ ذَاكَ، وإن راَهُ بُعَيدُ

مَنَّتْكَ نَفْسُكَ في الخَلا إطلالهُ ... أغواك عَمْرُو، والشَّقيُّ سَعيدُ

* فقال سعيد بن العاص هي القائلة يا أمير المؤمنين:

---

(١) الأبيات في بلاغات النساء.

قَـدْ كُنْـتُ أرجـو أَنْ أَمـوتَ، ولا أَدري فَـوْقَ المَنَـابِرَ مِـنْ بَنـي أُميـة خَاطبـاً
اللهُ أَخَّـــرَ مُـــدتي فَتَطاولـــتْ حَتَّـى رَأَيـتُ مِـنَ الزمـانَ عَجائبـاً

* فقالت يا أمير المؤمنين إن هذه جماعة حسنة، وأنا، والله لقائلة ذلك كله، وما أخفي عنك كان أكثر فضحك معاوية، وكل من في المجلس.

* وقال لها معاوية ليس يمنعنا ذلك من أداء حقك وقضاء حوائجك قالت أما في هذا المجلس فلا وانصرفت.

* حدثنا أحمد بن سليم قال دخلت عكرشة بنت / ٧٨/ الأطش بن رواحة على معاوية، وهي مُتكئةٌ على عصاة فهنأته بالخلافة، فقال لها معاوية لا إله إلا الله صِرْتِ عند أمير المؤمنين وتهنئيني اليوم بالخلافة قالت نعم إذ لا علي حي (رضي الله عنه) قال ألست المقلدة بالسيوف يوم صفين، وأنت بين الصفوف تقولين كلاماً حفظته منك قالت ما هو؟ قال: يا أيها الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم الجنة لا يرحل سكانها، ويحزن قاطنها فاشتروها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تقضى همومها وكونوا منتصرين في دينكم مستظهرين بالصبر على طلب حقوقكم.

* ألا إنَّ معاوية قدم عليكم بقوم غلف القلوب لا يفقهون الإيمان، ولا يدرون الحكمة دعاهم بالدنيا فأجابوه واستدعاهم إلى الباطل فلبوه الله عباد الله إياكم، والفشل فإنه ينقص عن الإسلام، ويطفئ نور الحق هذه بدر الصغرى، أو العقبة الكبرى وكأني أراك متوكئة على عصاك هذه، وأنت تجهزي الناس على القتال لولا كان أمر الله قدراً مقدوراً فما حملك على ذلك يا عكرشة؟ قالت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

* وإن العاقل إذا كره قولاً لم يقصد إعادته، ثم قال اذكري حاجتك التي جئت فيه قالت كانت الصدقات تؤخذ من أغنيائنا فترد على فقرائنا، وقد فقدنا ذلك فلا يجبر لنا كسير، ولا ينعش منا فقير فإن كان ذلك برأيك فانتبه من هذه الغفلة وراجع التوبة.

* وإن كان يغير برأيك فما مثلك يستعمل الظلمة، ويستعين بالخونة، فقال معاوية اكتبوا بصرف صدقات أغنيائهم على فقرائهم فلا حاجة لنا بها، وأخبرنا سهل التميمي قال حج معاوية فسأل عن امرأة من بني كنانة / ٧٩/ كانت مقيمة بأرض الحجاز يقال لها دارمية الحجونية فأخبروه بسلامتها، وأنها حية ترزق فأمر بها، فلما حضرت، وكانت سوداء قال لها كيف أنتِ يا بنت حام؟ قالت: لست بابنة حام أنا امرأة من كنانة، قال أتدرين لم أرسلت إليك وفيما أسند عينك قالت لا يعلم الغيب إلا الله تعالى.

* قال أردت أن أسألك لم أحببت علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وأبغضتيني، وواليتيه وعاديتيني؟ قالت: وتعفيني من ذلك قال لا بد أن تقولي قالت أحببت عَلياً على عدله في الرعية وقسمته بالسوية، وأبغضتك على قتالك لمن هو أولى بالخلافة منك وطلبك ما ليس لك بحق، وواليت علياً على ما عقد له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الولاية، وعلى حبه للمساكين، وإعظامه لأهل الدين وعاديتك على سفك الدماء وجورك في القضاء وحُكمك في الهوى.

* قال لها معاوية: هل رأيت علياً قالت نعم قال فكيف رأيتيه قالت رأيته ما فتنه الملك الذي فتنك، ولم تشغله النعمة التي شغلتك قال فهل سمعت من كلامه شيئاً قالت نعم كان كلامه يجلي القوب العُمي كما يجلو الزيت الصدأ قال فهل لك من حاجة؟ قالت نعم أعطني مائة ناقة حمراء فيها فحول ورعاتها قال: ما تصنعين بها؟ قالت: أغذو بلبنها الصغار واستحيي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر قال، فإذا دفعتها لك أكون عندك في منزلة علي قالت: لا، والله، فقال معاوية متمثلاً شعراً:

إذا لم أَجُـدْ بالحِلمِ مِني عَليكم ... فَمَنْ ذا الذي بَعدي يُؤَمَّلُ لِلحِلْمِ

خُذيها هنيئاً واذكري فِعْلَ مَاجِدٍ ... جَزَاكِ على حَرْبِ العَداوةِ والسَّلْمِ/ ٨٠/

* ثم قال، والله لو كان علي حياً ما أعطاك منها ناقة فقالت لا، والله، ولا وبرة لأنها من مال المسلمين، فقال لها خذيها وانصرفي.

* واستأذنت أم البر ابنة صفوان على معاوية فدخلت عليه وسلمت، وكان عليها ثلاث دروع تسحب خلفها، ثم جلست، فقال لها كيف أنت يا ابنة صفوان؟ قالت كسلت بين نشاط وضعفت بعد قوة قال شتان بين لسانك اليوم وبين قولك شعراً:

يا زَيدُ دُونك صَارماً ذا رَونقٍ   عَضْبُ المهزة لَيْسَ بالخوارِ

أَسرجْ جَوادك مُسرعاً وَمُشَمراً   للحربِ غَيْرَ مَعُوَّدٍ لِفرارِ

أَجِبِ الإمامَ وَدُبَّ نَحو لوائهِ   والقَ العَدوَّ بِصَارمٍ بَتَّارِ

يَا ليتني أَصبحتُ غَيْرُ قَعيدةٍ   فَأَذبُّ عَنْهُ عَسَاكِرَ الفُجَّارِ

* فقالت قد كان ذلك، ولكن عفا الله عما سلف، وما عاد فينتقم الله منه قال هيهات، والله لو عاد لعدت ولكنه أحترم من دونكم قالت أجل، والله إني على بينة من ربي وهداني من أمري، فقال لها بعض جلسائه، وهي القائلة يا أمير المؤمنين ترثي علياً بعد موته:

يَا للرجال لِعظم هَولِ مُصيبة   حَلَّتْ فَليسَ مُصَابُها بالحائلِ

الشَّمْسُ كَاسفةٌ لِفقد إِمَامنا   بِغير الخلائق، والإِمَام العَادلِ

صِهْرُ النبي لَقَدْ هُدَّتْ قُوانا   والحقُ أَصبحْ خَاضعاً للباطلِ

* قال لها معاوية: قاتلك الله فما أبقيت قولاً لقائل؟ اذكري حاجتك قالت أما الآن فلا وقامت فعثرت فقالت: تَعس يا غُضْنُ علي، ثم خرجت فبعث لها بجائزة سنية فتقبلتها

* ووفدت ليلى الأخيلية على الحجاج، فلما دخلت عليه / ٩١/ قال لها يا ليلى أنشدينا من شعرك فأنشدت ما اختارت، وهو يتستزيدها، فلما قضت إنشادها قال محصن العفشي، وكان جالساً عند الحجاج من هذا الذي مدحته هذه المرة بهذه الأبيات،

وأظنها كاذبة فنظرت إليه وقالت أيها الأمير إن هذا المعترض لو رأى ثوب الذي مدحته لسره أن لا يكون في بيته عذراء إلا، وهي منه حامل، فقال الحجاج هذا وآيتك الجواب الذي كنت عنه غنياً، ثم قال لها يا ليلى سلي حاجتك فأنشدت[1]:

إِذَا وَرَدَ الحَجَّاجُ أَرضاً مَرِيضَةً تَتَبَّعَ أقصى دَاءَهَا فَشَفاها
شَفَاها مِنَ الدَّاءِ العياء الذي بها غلام إذا هز القنا ثناها

* فقال لها لا تقولي غلام قولي هُمام، ثم قال لها قد أمرنا لك بعشرين أترضين فقالت زد فمثلك من زاد قال أربعين قالت زد فمثلك من زاد قال مائة واعلمي أنها غنم قالت معاذ الله أنت أجود جِواراً، وأعْظم مجداً، وأوري زنداً قال فما هي، ويحك قالت ورعاتها قال ورعاتها.

* ووفدت أسماء بنت يزيد على النبي (ﷺ) فقالت: بأمي أنت، وأبي يا رسول الله (ﷺ) إنه ليس في شوق... امرأة إلا، وهي مثل رأيي إن الله بعثك إلى الرجال، والنساء فآمنا بك وبالذي أرسلك، وإنا معاشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم ومواضع شهواتكم وحاملات أولادكم، وأنتم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمعة، والجماعة وعيادة المرضى ولتشييع الجنائز، والحج بعد الحج.

* ثم أفضل من ذلك الجهاد في سبيل، وإنكم إذا خرجتم حُجَّاجاً ومجاهدين وتجاراً ومسافرين حفظنا لكم أموالكم وربينا لكم أولادكم / ٩٢/ أفنشارككم في الأجر يا رسول الله؟ فالتفت النبي (ﷺ) بوجهه إلى أصحابه وقال: «هل سمعتم مقالة امرأة أحسن من مسألتها عن أمر دينها من هذه المرأة» فقالوا يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهدي في دينها إلى مثل مقالتها، فقال النبي (ﷺ): **«انصرفي أيتها المرأة واعلمي من خلفك من النساء أن أحسن اتباع أحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك إن شاء الله تعالى»**.

---

(١) ديوان ليلى الإخيلية.

* فانصرفت، وهي تهلل وتكبر استبشاراً.

* ولما ولي الحجاج الحرمين حضر عنده إبراهيم بن محمد بن طلحة، فلما أراد الحجاج الرجوع إلى الشام إلى عبد الملك بن مروان وفد معه إبراهيم بن محمد يريد له خيراً عند عبد الملك لم يبده بشيء قبل شكر إبراهيم بن محمد، وقال يا أمير المؤمنين أتيتك برجل الحجاز في الشرف، والأبوة، والمروءة مع ما هو عليه من حسن الطاعة وجميل المناصحة، والله لم يكن في الحجاز له نظير فبالله يا أمير المؤمنين إلا فعلت معه من الخير ما هو أهله.

* فقال يا عبد الملك، والله يا أبا محمد لقد ذكرتني بحق واجب ائذن له بالدخول فأذنوا لإبراهيم بالدخول، فلما دخل على عبد الملك أمر بجلوسه في صدر المجلس، ثم قال له إن أبا محمد الحجاج ذكرنا منك ما نعرفه من كمال مروءتك وحسن نصيحتك فلا تدع في صدرك حاجة إلا أعلمتنا بها حتى نقضيها لك، ولا نضيع شكر أبي محمد الحجاج فيك.

* فقال إبراهيم إن الحاجة التي أبغي بها وجه الله تعالى ونصيحة أمير المؤمنين، والتقرب إلى الله تعالى، وإلى النبي (ﷺ) في القيمة فأنا أبدأ بها يا أمير المؤمنين قال قل قل لم أقلها وبيني وبينك ثالث، ولا صديقك الحجاج قال قم يا حجاج فقام الحجاج خجلاً، وهو لا يعرف أين يطأ / ٩٣/ ، ثم قال: هات نصيحتك، فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين إنك وَلَّيتَ الحرمين وفيهم من يعرف من أبناء المهاجرين، والأنصار وصحابة رسول الله (ﷺ) مع ما يعلمه من ظلمه وعسفه وبعده عن الحق وقربه من الباطل ليسومهم الخسف، ويطأهم بالعسف.

* فليت شعري أي جواب أعددته لرسول الله (ﷺ) مع ما تعلمه إذا سألك في عرصات القيامة عن ذلك فبالله يا أمير المؤمنين إلا عزلته وادخرتها قربة إلى الله عز وجل.

* فقال عبد الملك: لقد ظن الحجاج الخير بغير أهله قم، فقال إبراهيم على أحسن حال، وقد خرجت من المجلس واسودت الأرض في وجهي فتبعني حاجبه وقبض على

زندي وجلس في الدهليز، ثم دعا بالحجاج فدخل فمكث طويلاً عند أمير المؤمنين، وما شككت أنهما يتناجيان في قتلي، ثم دعاني فقمت ودخلت فوافاني الحجاج، وكان خارجاً فعانقني، وقال جزاك الله عني خيراً، والله لئن عشت لأرفعن قدرك وتركني.

* فدخلت، وأنا أقول يهزأ بي، وهو معذور فدخلت على عبد الملك ابن مروان فأجلسني مجلسي الأول، ثم قال علمت صدقك ونصحك، وقد عزلته عن الحرمين، ووليته العراق، وأوجدته أنك تطلب له الزيادة في الأعمال، وهو يظن أنك السبب في توليته العراق، وقد تهلل وجهه بذلك سروراً فَسِرْ معه أينما توجه يوليك خيراً، ولا تقطع عنا نصيحتك.

* ووفد أبو الربيع على أبي جعفر المنصور، وكان صديقاً له قبل أن تُفضي إليه الخلافة، وكان يكتب معه الحديث، فلما دخل عليه قال يا أبا الربيع ما حال عيالك؟ قال كما علمت يا أمير المؤمنين فدفع له ألف دينار، وقال خذ هذه، ولا تأتنا / ٩٤/ بعد يومك هذا، وكان المنصور يشتهي أن لا يعود إليه لشيء في نفسه فأخذها الربيع وانصرف.

* ولما كان رأس الحول جاء دخل عليه وسلم فما رآه المنصور قال ألم أقل لك لا تأتينا قال يا أمير المؤمنين إني لم آتك سائلاً، وإنما أتيتك مسلماً فأعطاه ألف دينار، فقال خذها، ولا تأتينا بعد يومك هذا لا سائلاً، ولا مسلماً. فأخذها وانصرف، فلما كان رأس الحول أتاه، فقال له المنصور ألم أقل لك لا تأتينا، فقال لم آتك سائلاً، ولا مسلماً إنما أتيتك مستميلاً دُعَاءً كنت أسمع أمير المؤمنين يدعو به عقب الصلاة فدفع له ألف دينار، وكتب له الدعاء، وقال لا تأتينا سائلاً، ولا مسلماً، ولا مستميلاً، ولا تدعو بهذا الدعاء فإنه غير مستجاب قال، ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: لأني سألت الله أن يريحني منك منذ ثلاث سنوات فلم يستجب.

❖ ❖ ❖

الفَصْلُ السَّابِعُ

في الحب، وأسبابه، وما فعل بأهله، ومن عنا به

* قيل جلس معاوية بن أبي سفيان في مجلس كان له بدمشق، وكان ذلك الموضع مفتح الجوانب يدخل منه النسيم، فبينما هو جالس ينظر على بعض الجهات، وكان يوماً شديد الحر لا نسيم فيه، وكان وسط النهار.

* وقد نفخ الهجير إذ نظر إلى رجل يمشي نحوه، وهو يتلظى بالنار من حر التراب، ويحجل في مشيته حافياً راجلاً فتأمله معاوية، وقال لجلسائه هل خلق أشقى ممن يحتاج إلى الحركة في مثل هذه الساعة، فقال بعضهم لعله يقصد أمير المؤمنين، فقال: والله لئن كان قاصدي سائلاً لأعطيته، أو مستجيراً لأجرته، أو مظلوماً لأنصرنه يا غلام قف بالباب فإنْ طلبني هذا الأعرابي فلا تمنعه من الدخول علي فخرج الغلام فوافى الأعرابي، فقال ما تريد؟ / ٩٥/ فقال: أمير المؤمنين، قال: ادخل فدخل وسلم على معاوية، فقال له ممن الرجل؟ قال: من تميم قال ما الذي جاء بك في مثل هذا الوقت؟ قال: جئتك مشتكياً وبك مستجيراً قال ممن قال من مروان بن الحكم عاملك، ثم أنشد هذه الأبيات:

مُعاويُ يا ذا الجُودِ، والحِلْمِ، والحِجَا ... ويا ذا النَّدَى، والعِلْمِ، والشَّدو الفَضْلِ

أَتيتكُ لما ضَاقَ في الأرضِ مَذْهَبي ... فَيا غَوثُ لا تَقطعُ رَجَائي مِنَ العَدْلِ

وَفَرِّجْ كَلأكَ اللهُ عني فإنني ... لَقِيتُ الذي لم يَلْقَهُ أَحَدٌ قَبلي

وَجُدْ لي بإنصافٍ مِنَ الجَائرِ الذي ... بَلاني بِشيءٍ كَانَ أَيسرهُ قَتلي

سَبَاني سُعْدَى وَانبرى لخصومتي ... وَجَارَ، ولم يعدلْ وَغَاصبني أهلي

وَهَمَّ بِقتلي غَيْرَ أَنَّ منيتي ... تَأَنَّتْ، ولم أَستكملِ الرزقَ مِنْ أَجلي

* فلما سمع معاوية إنشاده، والنار تتوقد من فيه قال مهلاً يا أخا العرب اذكر قصتك، وأفصح عن أمرك؟ قال يا أمير المؤمنين كانت لي زوجة، وهي ابنة عمتي وكنت لها محباً وبها كلفاً وكنت بها قرير العين طيب العيش، وكانت لي صَرْمَةٌ من الإبل فكنت أستعين بها على قيام حالي وكفاف أودي فأصابنا سنة ذات قحط شديد أذهب الخف، والظلف وبقيتُ لا أملك شيئاً، فلما قَلَّ ما بيدي وذهب مالي وفسد حالي بقيت مهاناً ثقيلاً على وجه الأرض قد أبعدني من كان يشتهي القرب مني، وأوزعني من كان يرغب في زيارتي.

* فلما علم أبوها ما بي من سوء الحال وشر المآل أخذها مني و.... وطردني، وأغلظ علي فأتيت إلى عاملك مروان بن الحكم مستصرخاً وبه مستجيراً وبه راجياً لينصرني فأحضر أباها وسأله عن حالتي، فقال ما أعرفه / ٩٦/ قبل اليوم فقلت أصلح الله إن رأي أن يحضرها، ويسألها عن قول أبيها ففعل.

* فبعث إليها مروان، وأحضرها مجلسه، فلما وقفت بين يديه وقعت منه موقع الإعجاب فصار لي خصماً وعلي منكراً فانتهرني، وأظهر لي الغضب وبعث بي إلى السجن فبقيت كأنما خررت من السماء في مكان سحيق، ثم قال لأبيها هل لك أن تزوجها مني على ألف دينار لها عشرة آلاف درهم لك، وأنا ضامن لك خلاصها من هذا الأعرابي؟ فرغب أبوها في البذل، وأجابه لذلك فلكا كان من الغد بعث إلي، وأخرجني من السجن، وأوقفني بين يديه ونظر إلي كالأسد الغضبان.

* وقال يا أعرابي طلق سعدى؟ قلت له لا أقدر على هذا فسلط علي جماعة من غلمانه فأخذوا يعذبوني بأنواع العذاب فلم أجد بداً من ذلك ففعلت فأعادوني إلى السجن فمكثت فيه إلى أن انقضت عدتها فتزوجها ودخل بها، وقد أتيتك راجياً وبك مستجيراً، وإليك ملتجئاً، ثم أنشد شعراً:

في القَلْبِ مِنِّي نَارٌ والنَّارُ مِنْهَا استعارُ

والجســـمُ مِنـــي سَــقيمٌ فيـــه الطيـــب يَحَـــارُ
وفي فُـــؤادي جَمْـــرٌ والجَمْـــرُ فيـــه شَرارُ
والعـــينُ تَهطـــلُ دَمعـــاً فَـــدمعها مِـــدْرَارُ
ولـــيسَ إلا بـــربي ثـــم بـــالأمير انتصـــارُ

* ثم اضطرب واصطك لها وخر مغشياً عليه، وأخذ يتلوى كالحية المقتولة، فلما سمع كلامه، وإنشاده قال تعدى فظلم ابن الحكم في حدود الدين واجترئ على حرم المسلمين، ثم قال، والله يا أعرابي لقد أتيتني بحديث لم أسمع بمثله / ٩٧/ ، ثم دعا بدواية وقرطاس، وكتب إلى مروان بن الحكم قد بلغني أنك اعتديت على رعيتك وانتهكت حرمة من حرم المسلمين وتعديت في حدود الدين، وينبغي لمن كان، والياً أن يغض بصره عن شهواته، ويزجر نفسه عن لذاته، ثم كتب إليه بعد كلام اختصرناه يهدد به نظماً:

وُلِّيْـتَ، ويحـكَ أَمـراً لَسْـتَ تُدركـهُ فاسـتغفرِ اللهَ مِـنْ فِعْـلِ امـرِئٍ زاني
وَقَـدْ أَتانـا الفَتَـى المسكينُ مُنتحبـاً يَشْـكو إلينـا ببَـثٍ، ثـم أحـزاني
أَعطـى الإلـه يمينـا أكفرهـا وَلَسْـتُ أَرغـبُ في حَنَـثٍ لأيـماني
إِنْ أَنْـتَ خَـالفتني فـيما كَتبـتُ بِـهِ لأجعلنـك لَحـماً بَـيْنَ عُقبـاني
طَلِّـقْ سُـعْدَى وَعَجلهـا مجهـزة مَـعَ الكُميـتِ، ومـع نَصْرِ بـن ذُبْيَـانِ

* ثم طوى الكتاب وطبعه بخاتمه واستدعى الكميت ونصر بن ذبيان، وكان يستنهضهما في قضاء الحوائج لأمانتهما قال فأخذاه وسارا حتى قدم المدينة فدخلا مروان بن الحكم فسلما إليه الكتاب ففضه وقرأه فارتعدت فرائصه فطلقها في الحال وبعث بها إلى أمير المؤمنين، وكتب كتاباً فقرأه معاوية، فقال لقد أحسن في الطاعة، وأطنب في حسن الجارية، فلما رأى معاوية الجارية رأى صورة لم ير مثلها في الحسن، والقد، والجمال فخاطبها فوجدها أفصح النساء بعذوبة منطق، فقال علي بالأعرابي فأتى إليه، وهو على

غاية من سوء الحال، فقال يا أعرابي هل لك عنها من سلوة، وأعوض عنها ثلاث جوار بكم مع كل جارية ألف دينار، وأقسم لك من بيت المال ما يكفيك في كل سنة، ويعينك على صحبتهن، فلما سمع الأعرابي كلام معاوية شهق شهقة ظن معاوية أنه قد مات / ٩٨/ ، فقال له معاوية ما بالك؟، فقال شر بال، وأسوأ حال استجرت بعدلك من جَوْرِ ابنِ الحَكم فبمن أستجير من جورك، ثم أنشد هذه الأبيات:

لا تَجعلني فَدَاكَ اللهُ مِنْ مَلِكٍ ... كالمستجيرِ من الرمضاءِ بالنارِ

أُرددْ سُعادَ على حَيْرَانَ مُكتئب ... يُمْسِي، ويصبحُ في هَمٍّ، وأفْكارِ

ووالله، ووالله لا أَسْلُوا محبتها ... حتى أَغْيَبَ في رَمْسٍ، وأحجارِ

كَيْفَ أَسلو، وقد هَامَ الفُؤادَ بها ... وأصبحَ القلبُ عَنْهَا غيرُ صَبارِ

أَطلقْ وِثاقي، ولا تَبْخَلْ عَلَيَّ بِهَا ... فَإنْ فَعلتَ فَإني غَيْرُ كَفَّارِ

* ثم قال، والله يا أمير المؤمنين لو أعطيتني ما حوته الخلافة ما اعتضته دون سعدى، ثم أنشد:

أبى القَلبُ إلا حُبُّ سَعْدى ... وَبُغضت إلي نِسَاءُ مَالهن ذُنوبُ

* قال معاوية يا أعرابي أنت مقر أنك طلقتها ومروان مقر أنه طلقها، ونحن نخيرها فإن اختارت سواك زوجناها منه، وإن اختارتك رجعنا بها إليك؟ قال افعل فلا حول، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فقال لها معاوية: ما تقولين يا سعدى أيهما أحب إليك أمير المؤمنين في عزه وشرفه وسلطانه وقصوره، وما تصيرين عنده، أو مروان بن الحكم في عسفه وجوره وهذا الأعرابي مع جوعه وفقره وسوء حاله؟ فأنشدت هذين البيتين من شعر:

هذا، وإن كَان في جُوعٍ، وإضراري ... أَعَزُّ عِنْدِي مِنْ عومي، ومن جَاري

وَصَاحِبُ التاجِ، أو مروان عَاملهُ ... وكل ذِي دِرْهَمٍ عِنْدِي وَدينارِ

* ثم قالت، والله يا أمير المؤمنين ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان، ولا لغدرات / ٩٩/ الأيام، وإن لي معه صحبة قديمة لا تنسى ومحبة لا تبلى، وإن أحق من صبر معه على الضراء كما تنعمت معه في السراء فتعجب معاوية من عقلها ومروءتها، وأمر لها بعشرة آلاف درهم وردها للأعرابي بعقد صحيح.

* وحدث محمد بن أبي سهل قال: حدثني محمد بن قيس قال وجهني عامل المدينة إلى يزيد بن عبد الملك، وهو إذ ذاك وظيفة، فلما خرجت عن المدينة ليلة، أو ليلتين، أو أكثر، وإذا أنا بامرأة قاعدة على الطريق، وإذا شاب ورأسه في حجرها، وهو يتلوى ورأسه يسقط من حجرها وكلما سقط أعادته فسلمت فردت علي السلام، والشاب مشغول في نفسه.

* قال فسألتها عنه فقالت يا عبد الله هل في الأجر، والمثوبة فقلت لا أبغي سواهما قالت هذا ولدي، وكانت لي ابنة عم تربيا سوا وشغفت به وشغف بها وعلم بذلك أبوها فحجبها عنه، وكان يأتي الموضع، والخبأ فيبكي، ثم خطبها من أبيها فأبى أن يزوجه منها لأننا نرى ذلك عيباً أن تزوج امرأة لرجل كان يحبها، ثم خطبها رجل غيره فزوجها أبوها منه منذ خمسة أيام، وهو على ما ترى لا يأكل، ولا يشرب، ولا يعقل فلو نزلت إليه وتحدثت معه، ووعظته وسليته فلعله يسكن إلى حديثك، ويتقوت بشيء من الطعام قال محمد فنزلت ودنوت منه وتلطفت به فرفع إلي طرفه، وقال شعر:

ألاما للحبيبةِ لا تَعودُ ... أَبُخْلٌ بالحبيبةِ أَمْ صُدودُ

فَقَدْتُكِ بَينهم فَبكيتُ شَوقاً ... وَفِقْدُ الألف يا سُكني شَديدُ

فَلَو كُنْتِ المريضةُ جِيْنَ أَسْعَى ... إليكِ وَلو يُنهنهني الوعيدُ

* ثم سكن فنظرت المرأة إلى وجهه وصرخت وقالت فاضت، والله نفسه قالتها ثلاثاً فغشيني من ذلك هم وغم، فلما رأت العجوز ما حل بي من الحزن عليه / ١٠٠/ قالت يا ولدي هَوِّنْ الله عليك، والله لقد استراح مما كان فيه وقدم على رَبٍّ كريم فهل لك في

استكمال الأجر، قال: نعم، قالت الحي منك قريب فإن رأيت أن تمضي إليهم تنعيه لهم وتسألهم الحضور ليعينوني على مواراته فيه فافعل قال محمد فركبت، وأتيت الحي فنعيته لهم، وأخبرتهم بصورة أمره فبينا أنا أدور في الحي، وإذ أنا بامرأة خرجت من خبائها تجر خمارين ناشرة شعرها فقالت لي أيها الناعي لمن تنعي فقلت فلان فقالت بالله مات فقلت نعم قالت هل سمعت منه شيئا قبل موته قلت نعم فأنشدتها الشعر فجعلت وتقول تبكي:

مَنعنـــــي أَنْ أزوركَ يـــا حبيبـــي	مَعَـــاشِرٌ كُلهـــم وَاشٍ حَســـودُ
أَشَـــاعوا مـــا عَلمـــتَ مـــن الرزايـــا	وَعَابونـــا، ومـــا فـــيهم رَشـــيدُ
فَأمـــا إذا ثويـــتَ اليـــوم لحـــداً	فـــدُورُ النـــاسِ كُلُّهُـــمُ لُحُـــودُ
فَـــلا طَابـــتْ لي الـــدنيا حَيَـــاةٌ	ولا سَـــحَّتْ عَـــلَى الأرضِ الرُّعُـــودُ

* ثم خرجت مع القوم، وهي تولول حتى انتهينا إلى الغلام فغسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه، فلما تفرقنا عن قبره جعلت تصرخ وتلطم في صدرها فركبت ومضيت، وهي على تلك الحالة.

* فأتيت يزيد بن عبد الملك فناولته الكتاب فسألني عن أمور الناس، وما رأيته في طريقه فأخبرته الخبر، فقال لي يا محمد إمضِ الساعة قبل أن تشتغل في غير هذا حتى تمر بأهل الفتى وبني عمه وامضي بهم إلى عامل المدينة فتأمره أن يثبتهم في شرف العطاء، وإن كان أصاب الجارية ما أصابه فافعل بأهلها كما فعلت بأهله.

* وارجع إلي حتى تخبرني بالخبر وتأخذ جواب الكتاب قال محمد فخرجت حتى انتهيت إلى قبر /١٠١/ الغلام فوجدت بجانبه قبراً آخر فسألت عنه قالوا هذا قبر الجارية، ولم تزل تصرخ وتلطم في صدرها حتى فاضت نفسها ودفنت بجانبه فجمعت أهلها ومضيت بهم إلى عامل المدينة فأثبتهم في شرف العطاء.

* وعدت فأخبرته الخبر فأجازني على ذلك جائزة حسنة.

* قال حماد كنت عند جعفر بن سليمان بالبصرة إذ أتى بشاب حسن الوجه معه جارية كأنها قضيب بان، فقال صاحب الشرطة أصلح الله الأمير وجدت هذا وهذه مجتمعين في خلوة وليست له بمحرم، فقال جعفر للفتى ما تقول قال صدق، والله لقد طال غرامي بها منذ سنين، والله ما أمكنني بها خلوة إلا في هذا الوقت، ثم أنشد هذه الأبيات:

تَمنيتُ مِنْ ربي أفوزُ بِقُربها فلما تهيأ لي ال... له العُسْرُ

فوالله، ثم الله ما كان رِيْبَةٌ وما كَانَ إلا اللفظُ، والضحكُ، والبشرُ

فَدونكموا جَلْدي، ولا تَجلدونها فَكَمْ مِنْ حَرامٍ كَان من دُونه سِتْرُ

* قال حماد فجعلت الجارية تبكي بكاء شديداً، فقال لها جعفر، وأنت لم تبكين؟ قالت، والله شفقة لما حل بنا وكيف احتلت حتى خرجت وكيف بلينا بهذه الرزية، فقال لها أتحبينه قالت فلم غررت نفسي قال لها جعفر أنت حرة أم مملوكة قالت مملوكة فأمر بها فأدخلت الدار، وأحضر مولاها فاشتراها منه بمائتي دينار، وأعتقها وزوجها للفتى، ووهب لها مائة دينار وكساها وصرفها عنه فقالت شعر:

لَقَدْ جُدْتَ يَا ابنَ الأكرمين بِنعْمَةٍ جَمعتَ بِهَا بَيْنَ المُحبين في سِترِ / ١٠٢/

فَلا زِلْتَ للإحسانِ كَهْفَاً وَباغياً وقد جَلَّ ما قد كان مُذْعن الشُّكْرِ

* قال فضحك، وأمر لها بجائزة على البيتين وانصرفا .

* ويروى أن أبا بكر الصديق (رضي الله عنه) مر طائفاً بالمدينة في خلافته، وإذ بجارية تبكي وتقول شعراً:

وهويتهُ مِنْ قُبْلِ قَطْعِ تَمائمي مُتناسباً مِثْلَ القَضِيبِ الناعمِ

وَكان نورَ البدر يُشبه وجههُ يَمشي، ويصعدُ في ذُؤابة هَاشمِ

* فقرع أبو بكر (رضي الله عنه) الباب فخرجت إليه، فقال لها أحرة أنت أم مملوكة؟ قالت مملوكة قال من هويت فبكت وقالت سألتك إلا انصرفت عني قال لا بد فقالت شعراً:

وأنـا الـذي قَـرَّحَ الفِـراقُ بِقلبهـا فَبَكَـتْ لِحُـبِّ محمـد بـنِ القَاسـمِ

* فسار أبو بكر (رضي الله عنه) إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه).

* قيل إن عمر بن دويرة كان له كلف بابنة عمه كلفاً شديداً، وكان عمه يكره ذلك، ويأباه فشكى إلى خالد بن عبد الله القسْري، وهو يومئذ عامل على العراق فذكر أنه يسيء جواره فسأله عن ذلك فحبسه خالد أياماً، ثم أطلقه، ثم زاد ما به غلبة الشوق فحمل على أن يتسور دار عمه ليرى ابنته لمحبته فيها ففعل ذلك ورأوه فمسكوه وادعوا عليه بالسرقة، وأنهم وجدوه فوق الدار وحملوه إلى خالد فسأله خالد فاعترف بالسرقة ليدفع المظنة عن ابنة عمه فأمر خالد بقطع يده فكتب أخوه رقعة ودفعها لمن أوصلها إلى خالد فيها شعر:

أَخالـدُ قَـدْ أوطيـتَ، والله عِشرةً وما العاشـقُ المظلـومُ فينـا بِسَـارقِ

أقـر بـما لم يجنـه المـرء إنـه رَأى القَطْعَ خَيراً مِنْ فَضيحةِ عَاشقِ/ ١٠٣/

إذا مُـدَّتِ الغَايـاتُ للسبقِ في العُـلا فَأَنْـتَ ابـنُ عبـد الله أَولُ سَـابقِ

فَمُـنْ عَلينـا واصـطنعْ عِنْـدنا يَـدَاً فَـإنَّ الفَتـى في قَولـهِ غَـيْرُ صَـادقِ

* قال فأرسل خالد مولى له يثق به ليكشف عن حقيقة الأمر فأتاه بالصحيح من أمر الغلام فأحضر عمه، وألزمه بتزويج ابنته ففعل، فقال له خالد كم مبلغ رجاك من مهر ابنتك؟، فقال كذا وكذا فدفع له خالد، وأجرى عليه ما يكفيه ولزم باب خالد، وكان يعرف بالعاشق.

* وكان ممن بلغ به الحب إلى ذهاب نفسه مع جلالة قدره وعلو شأنه يزيد بن عبد الملك بن مروان، وكان يحب حبابة جاريته وسَلَّامَة، وكان حبه لحبابة أشد، وكان اشتراها بمائة ألف درهم واشترى سلامة بعشرة آلاف دينار، ولما اجتمعا عنده أنشد[1]:

---

(١) البيت منسوب للشاعر العرجي.

وَأَلقتْ عَصَاها واستقرَّ بِهَا النَّوى كَمَا قَرَّ عَيناً بالإِيابِ مُسَافِرُ

* وكان يقيم الشهرين، والثلاثة خالياً بهما مُنعكفاً عليهما قد أهدر أمر الرعية، ولا يراهُ أحد من رعيته، ولا من خواصه، ولا أخوه مسلمة، فلما طال عليه ذلك دخل أخوه مسلمة فأكثر لومه وعتبه وعنفه على الإلحاح على ما كان عليه من الخلوة، والانقطاع، وقال يا أمير المؤمنين يقف ببابك وفود الناس، وأشراف العرب فلا تأذن لهم وتخرج عليهم، وأنت قريب عهد لعمر بن عبد العزيز.

* وقد علمت طيب ذكره وجميل أثره وحسن سيرته قال أرجو أن لا تعاتبني على هذا بعد يومنا فلما خرج من عنده استلقى يزيد على فراشه متفكراً ودخلت عليه حبابة فأعرض عنها فقالت ما بالك يا أمير المؤمنين؟ فأخبرها بمقالة مسلمة فقالت امنعني منك بمجلس واحد وافعل ما شئت قال لك صبوح غد، فلما أصبح أمر بالطعام، والشراب / ١٠٤ / ، فلما أخذ منه الشراب غنته وقالت شعر:

كَريمُ قُريشٍ حين يُنسبُ، والذي أَقَرَّتْ له بالفَضْلِ كَهلاً، وأمردا

أَهانَ تِلادَ المال بالجودُ إنه إمامُ هُدَى يَجري على مَا تعودا

* وغنته سَلَّامة شعر:

إذا أَنْتَ لم تَعْشَقْ، ولم تَدْرِ ما الهَوى فَكُنْ حَجَراً مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَلْمَدَاً

وَإني لأهواها، وأهوى لقاءها كَما يَشتهي الصَّادي الزُّلالَ المبردا

* فقال يزيد: ويحك يا حبابة من كريم قريش؟ قالت أنت يا أمير المؤمنين قال صدقت قاتل مسلمة ولعن رأيه وقام يرقص، ويدور، ويقولوا طرباه، والكريم طروب، وكان يسر بها إذا رآها سروراً عظيماً حتى إذا جلس معها على الشراب يقوم واقفاً، ويأخذ وسادة، ويجعلها على رأسه، ويدور في المجلس، ويقول السمك طري أربعة أرطال عند البقال، ويشق الحلة التي تكون عليه، وكانت الحلة التي تكون عليه تُقَوَّمُ في الطراز بألفي دينار، ويصبح خالياً بلذاته مقبلاً على لهوه وشرابه وحبابة تغنيه،

وهو يقول لا تطلعوني على أمر من أمور، وما برح كذلك إلى أن حبابة تناولت حبة رمان فشرقت بها فماتت فجزع عليها جزعاً شديداً ومكث ثلاث أيام لا يدفنها حتى أنتنت وجافت، وهو يضمها، ويرشفها فكلمه جماعة من أهله، وقالوا اِتقِ الله في نفسك يا أمير المؤمنين وادفن هذه فإنه جيفة، وإكرامها دفنها فأذن لهم في دفنها.

* فلما كان بعد خمسة أيام غلبه الشوق إليها، والوحشة لها أمر بنبشها فكشف عنها التراب، فإذا هي تغيرت تغيراً قبيحاً وتقطعت فعوتب على ذلك، فقال ما رأيتها قط أحسن من هذه الساعة فدخل عليه مسلمة، وقال، والله لأن / ١٠٥/ بلغ أهل الشام خبرك ليقولون إنك خولطت في عقلك وليخلعك الناس، وأنت عليه فأمر بدفنها ورد التراب عليها ولزم فراشه فما لبث بعدها سوى سبعة عشر ليلة و دفن إلى جانبها.

* وذكر عن فتى من ذوي النعم قعد به دهره ولج عليه الفقر، وكانت له جارية أحسن الناس وجهاً، وأكملهم خلقاً، وكان يحبها حباً شديداً، وكانت تحبه كذلك، فلما ضاق عليه الحال واشتد عليه الأمر قال لها ما ترين مما نحن فيه من الفاقة ورقة الحال فإن رأيتي أن أبيعك لبعض المتوكلين فأنسع في ثمنك وتتنعمين أنت عنده فعلت؟ وقالت، والله فراق روحي من جسدي أهون علي من فراقك فاتفقا على ذلك وخرج فعرض بذكرها لبعض التجار، فقال له بعض أصحابه إن كان، ولا بد فابعث إليها عبد الله بن معمر، وكان عاملاً على العراق فحملها إليه، وأحضرها بين يديه فاستحسنها، ووقعت منه موقع الإعجاب.

* ثم قال له كم رجوت في ثمنها قال أربعين ألف درهم فدفع له ذلك وعشرة آلاف درهم نفقته وعشرة رؤوس من الخيل المسومة، وقال أرضيت؟ قال أرضى الله الأمير ورضي عنه فأمر عبد الله بن معمر بعض الجوار أن تدخل الجارية إلى بعض الدور وتكرم مثواها فأمسكت الجارية بجانب الستر وقالت:

هَنيئاً لكَ المالُ الذي أخذتهُ ... فلم يَبْقَ في كَفي غَيْرُ التفكرِ

أَقُولُ لِنفسي في كُرباتها أقلي فَقَدْ بَانَ الحبيبُ، أو أكثرُ

إِذَا لَمْ يَكُنْ في الأمرِ عِنْدَكَ حِيلةٌ ولم تجدي بُدَّاً مِنَ الصَّبْرِ فَاصبرِ

* فلما سمع الفتى بكى حتى ارتفع نحيبه وقال:

ولولا قُعودُ الدهرِ عندهُ لم يَكُنْ يُفرقنا شيءٌ سِوى الموتِ فَأعذرُ/ ١٠٦/

أروحُ لهم مِنْ فراقك مُؤلم أُناجي به قليلَ الصَّبْرِ

عَليكِ سَلامٌ لا زيارةَ بيننا ولا وَصْلٌ إلا إِنْ يَشَاءَ ابنُ مَعْمَرِ

* قال عبد الله بن معمر قد شئت يا فتى خذها وخذ المال الذي صار إليك، فأخذ الفتى المال، والجارية وانصرف.

❖ ❖ ❖

الفصل الثامن

في سرعة أجوبة الأذكياء وعبارات الفضلاء

* قال رجل للأحنف أخبرني ثقة بسوء قال له الثقة لا ينم، وأمر أمير المؤمنين الرشيد يحيى بن خالد بهدم بناء بعض الملوك، فقال يحيى يا أمير المؤمنين ما الحاجة إلى هدم بنيان يدل على فخام شأن بانيه، فقال اهدمه، ولا تراجعني فيه فحسب مقدار ما صرف على هدمه بعضه فجاء جمله كثيرة فاستكثرها الرشيد ورجع عن ذلك، فقال له يحيى ما كان أغناك عن ظهور عجزك عن هدم ما بناه غيرك.

* وقالت عائشة (رضي الله عنها) ذبحنا شاه وتصدقنا بها فقلت يا رسول الله ما بقى منها شيء إلا كتفها، فقال (صلى الله عليه وسلم): «**كلها باقٍ إلا كتفها**».

* وقيل للمسيح عليه السلام لو سألت الله أن يرزقك حماراً يحمل رحلك؟ فقال: أنا أكرم على الله أن يجعلني خادم حمار، وقيل ليحيى بن خالد غَيِّرْ حاجبك؟، فقال، ومن يعرف إخواني القدماء.

* وقال رجل لمحمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) لم غَـرَّرَ بك أبوك في الحروب، ولم يغرر بالحسن، والحسين، فقال لأنهما عيناه، وأنا يمينه فهو يدفع بيمينه عن عينيه.

* وسأل الحسن بن سهل دينار بن عبد الملك ماديتك، فقال ما ظننت إن حياً يسئل عن هذه المسئلة لأنها مسألة منكر ونكير للميت ديني الإسلام وطاعة الأمير.

* وقال المتوكل لأبي العيناء ما أشد ما مر عليك في ذهاب بصرك قال فوت رؤيتك يا أمير المؤمنين فاستحسنها منه، وأمر له / ١٠٧/ بجائزة حسنة.

* وغاب أبو العيناء عن المتوكل مدة، ثم دخل عليه، فقال له ما أقعدك عنا يا أبا العيناء؟ قال سرق حماري يا أمير المؤمنين قال كيف سرق قال ما كنت مع اللص فأعرف

كيف سرقه قال ما منعك أن تزورنا على غِيرة قال ثلاث يا أمير المؤمنين؟ قال ما هن قال قلة يساري وَمِنَّة العواري وزلة المكاري.

* وقيل لأبي العيناء ما بال الحمير إذا أحست بالرجوع إلى مرابطها، والقرب من دور أهلها أسرعت المشي البطيء منها وغيره إلا حمارك يا أبا العيناء إذا قرب من دارك تحابت في المشي؟ قال لعلمه بسوء المنقلب.

* وأضاف بعض البخلاء قوما، فلما أكلوا نظر إلى واحد منهم، وقال ما بال شدقك أعوج؟ قال عقوبة من الله لكثره ثنائي عليك بالباطل إلا أني أقول للناس إنك كريم.

* ودخل عمرو بن العاص إلى معاوية، وهو يتغدى، فقال هلم يا عمر، فقال هنيئا يا أمير المؤمنين فإني لم يبق في فضله للأكل، فقال معاوية ما أقبح الرجل إذا ملأ جوفه حتى لم يبق فيه فضله للأكل، فقال يا أمير المؤمنين في فضله، ولكن أخشى إلي أن أصير إلى ما استقبحه أمير المومنين.

* وقال عبد الله بن أبي السمط لعمارة: مالي أرى المأمون لا يحسن سماع الشعر؟، فقال عمارة: ومن أفرس منه فيه، والله لننشده البيت من الشعر فيسبقنا إلى آخره، ولم يكن يسمعه قط قال فما بالي أنشدته بيتا فلم يحتفل به، ولا تحرك لسماعه، فقال عمارة، وما البيت، فقال عبد الله:

أضحى إمامُ الهدى المأمونُ مُشتغلاً بالدين، والناسُ بالدنيا مَشَاغِيلُ

* قال ما قلت شيئاً إنما جعلته عجوزا في محرابها، وفي يدها سبحتها فمن يقوم مقام أمير المؤمنين إذا كان مشغولاً عن رعيته لم لا قلت كما قال جرير في عبد العزيز بن مروان حين قال: / ١٠٨/

فلا هو في الدين مُضيعا نَصيبهُ ولا عَرَضَ الدنيا مِنَ الدينِ شَاغِلِه

* وقال المبرد: أتى رجل إلى عامل البصرة، وكان هذا العامل قد ولاه المنصور الإجراء على القواعد من النساء اللاتي لا أزواج لهن، وعلى العميان، والأيتام، فقال

أسأل أيها العامل أن تثبتني مع القواعد من النساء؟ قال: يا هذا أنت رجل، والقواعد نساء قال ففي العميان قال فإني أراك بعينيين لكن فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور قال فثبت أولادي في الأيتام قال كيف يكون أولادك أيتام، وأنت تعيش لهم؟، ثم أثبته مع العميان، وأثبت أولاده مع الأيتام.

* ووقف رجل للواثق بالله، فقال يا أمير المؤمنين صل رحمك وارحم أقاربك، وأكرم رجلا من أهلك؟ قال من أنت فإني لم أعرفك قبل اليوم؟ قال أنا ابن جدك آدم قال يا غُلام أعطه درهماً، فقال يا أمير المؤمنين، وما أصنع به قال إني لو قسمت بيت المال على أُخوتك من أولاد جدي من آدم لكان ينوبك منه حبه، فقال لله درك يا أمير المؤمنين ما أذكاك فأمر له بعطاء وانصرف.

* ومر جرير على جماعه نسوه، وهو راكب على بغلته وهن يغسلن على بعض المياه فضرطت البغلة فضحكن النسوة، فقال جرير لهن أما علمتن أن كل أُنثى تحملني تفعل كما فعلت هذه البغلة فقالت واحده منهن كيف كان حال أُمك حين حملتك تسعه أشهر.

* وقيل دخل المأمون على أُم الفضل بن سهل، وقد مات ولدها الفضل، وهي تبكي عليه بكاء شديداً، فقال مهلاً يا أُم الفضل ما ترضين أن أكون لك عوضاً من ابنك قالت لا أبكي ولداً أكسبني مثلك.

* قال رجل لعمر بن الخطاب حين سأله عمر من سيد قومك، فقال أنا يا أمير المؤمنين قال لو كنت كذا لم تقله.

* وقال معاوية للحصين بن المنذر: وكان يدخل عليه آخر الناس ما الذي يبطئ بك إلى آخر الناس / ١٠٩ / ، وأنت حق بالتقدم بالدخول علي؟، فقال شعر:

وَكُلُّ خَفيقِ الشَّأْنِ يَمْشي مُشمِّرَاً إِذَا فَتَحَ البوابُ بَابكَ إصبعا

وَنحنُ جُلوسٌ مَاكثونَ رَزانَةً وَحِلْما إلى أن يَفتح البابُ أجمعا

* فقال معاوية إنك لحليم رزين.

* وخرج أمير المؤمنين العباس السفاح تنزها بالأنبار فأمعن في تنزهه وانفرد عن أصحابه فوافى خِباء الأعرابي، فقال للأعرابي أنت صاحب هذا الخباء قال نعم فمن أنت أنا من كِنانة قال من أيها أنت قال من أبغض كنانة إلى كنانة قال تكون قرشي قال فمن أيها أنت قال من أبغض قريش إلى قريش قال تكون من ولد عبد المطلب إلى عبد المطلب قال السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمه الله وبركاته فاستحسن ما رآه من حذقه، وأمر له بجائزة حسنة.

* وقال المتوكل يوما لجلسائه أتعلمون أول ما عتب الناس قال عثمان (رضي الله عنه) قالوا يا أمير المؤمنين بماذا قال؟ لأنه لما توفي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قام أبو بكر (رضي الله عنه) على المنبر دون مقام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بدرجه، فلما ولي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) نزل عن مقام أبي بكر (رضي الله عنه) درجه، فلما ولي عثمان (رضي الله عنه) صعد على أعلى المنبر مكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأنكر المسلمون عليه ذلك.

* وكان المراد أن يكون دون درجة عمر (رضي الله عنه)، فقال عباده يا أمير المؤمنين ما أحد أعظم منه عليك من عثمان (رضي الله عنه) قال وكيف ذلك قال كونه صعد إلى أعلى المنبر ولو كان من ولي نزل عن مُقام من تقدمه درجة كنت أنت اليوم على الأرض السفلى.

* وسأل رجل فقيهاً عن الخمر أحلال هو أم حرام؟، فقال له / ١١٠/ حرام، فقال الرجل ما تقول في العنب، والزبيب، والتمر أحلال هم أم حرام؟ فقال له: حلال قال فما تقول في السكر، والقند، والعسل؟ قال حلال قال فأي شي حلل هذا وحرم هذا، فقال الفقيه أرأيت لو أخذت كَفّاً من تراب ولطمت به وجهك، أو صدرك لكان يؤلمك قال: لا، قال: فلو أخذت كَفّاً من ماء فلطمت به وجهك لكان يؤلمك قال لا قال فلو أخذت التراب، والماء فجمعتهم وجبلتهم، ووضعتهم في الشمس أياماً، ثم ضربت بهم وجهك لكان يؤلمك قال نعم قال وهكذا إذا جمع هذا وعتق حرم، وإذا جمع هذا وعتق آلم.

* وكتب بعض علماء مالك (رضي الله عنه) للإمام الشافعي (رضي الله عنه) يا إمام لي خالة، وأنا خالها ولي عمة، وأنا عمها فأما التي أنا عم لها فإن أبي أمه أُمها أبوها أخي، وأخوها أبي على سنه قد جرى رسمها.

* وأما التي أنا خال لها فأن أبو الأم جد لها ولسنا مجوسا، ولا مشركين بل سنة الحق فاتها فأين الإمام الذي عنده فنون التناكح، أو علمها يبين لنا كيف أنسابنا، ومن أين كان كذا حكمها فكتب إليه الإمام (رضي الله عنه) القائل لهذه المسألة تزوجت جدته لأبيه يعني أُم أبيه بن أخيه لأمه وتزوجت أُخته لأبيه بأبي أُمه، وأولادهما بنت ابن فبنت جدته عمته، وهو عمها وبنت أُخته خالته، وهو خالها.

* وكتب له بعض علماء الإمام مالك رحمه الله يا إمام ما تقول في الفرض وفرض الفرض، وما يتم به الفرض وصلاه لا فرض وصلاه تركها فرض وصلاه بالطول، والعرض وصلاه بين السماء، والأرض وصلاه في السماء، والأرض فكتب (رضي الله عنه) أما قول القائل الفرض فهو الخمس صلوات وفرض الفرض فهو الوضوء.

* وأما قوله ما يتم به الفرض فهو / ١١١/ الصلاة حين يألم ارتعاشا قوياً، فإذا رفع يده عنها سكن ذلك الارتعاش فان عاد إلى لمسها عاد الارتعاش وهذه الخاصية موجودة في السمكة مادامت الروح فيها، فإذا خرجت الروح منها ذهبت تلك الخاصية.

* منها وقدم ملك إلى هذه الأرض اسمه مصر فسأل الله تعالى أن يضع له فيها البركة فأجاب الله دعاؤه وبارك له فيها، وفي ماشيتها، وفي نهرها فأما أدركته الوفاة عهد إلى ولده الأكبر، وكان اسمه مصرايم فملك هذه الأرض المذكورة وسماها مصر باسمه فهي أرض مصر، وكان مسكنه مدينه منف، وكان له خمسه أولاد قفط ومقطم، وأشمون، وقيل إشمن، وأتريب، وما قسم عليهم أرض النيل وجعل لكل واحد منهم حدا لا يتعداه إلى أخيه الآخر فجعل لقفط، وكان أكبرهم أعلى النيل فبنى فيه مدينة وجعل فيها قصراً وسماها باسمه.

* وجعل للذي يليه موضعا، وهو أشمون أسفل منه فبنى فيه مدينة وسماها باسمه وجعل للذي يليه موضعا فبنى فيه مدينة وسماها باسمه.

* وكان مقطم منقطعا إلى الله تعالى ملتجئاً إلى العبادة فالتجأ إلى الجبل، وأقام به إلى أن مات فسمي الجبل باسمه، وهو الجبل المقطم.

* ولما حضرت مصرايم الوفاة عهد إلى قِفط، وكان قِفط عظيم الخلقه ذا قوه وبطش فبنى البرابي[1] في بلاد الصعيد، والملاعب، وكتب فيها حكمته وعلومه واستخرج المعادن من مدينه القبط، وكان له ولد اسمه قوص فبنى بالصعيد مدينة وسماها باسمه قوص.

* ووهب ولداً من أولاده مكانا فيه مدينه وسماها باسمه هرهاس، وكل مدينه بالديار المصرية مسماه باسم من أسسها من ولد مصر ومصرايم، وولد ولدهم وعاش قفط أربعمائة وثمانين سنة.

* ولما أدركته الوفاة عهد إلى أخيه شموم ودفن بالواحات وملك بعده أخوه شموم وبنا الملاعب، والبرابي.

* وفي أيامه هلكت / ١١٢/ عاد بالريح وسار شداد بن عاد إلى مصر، وكان قد نجا من عذاب الريح فناصب أشموم في الديار المصرية وقاتله فعجز أشموم عن قتالهم وسلم لهم الديار المصرية بعد أن هدم آثاراً كثيرة فأنشأ شداد بن عاد آثاراً كثيرة بها منها الأهرام، ثم توجه إلى الإسكندرية فشرع في بنائها، وأسسها وبنا فيها بنياناً عجيباً، وأظهر فيها قوته وحكمته، ثم أصابه بها وباء شديداً فارتحل منها إلى المدينة.

* وكانت بناحية العريش إلى أن هلك وعاد شموم إلى ملك مصر، ولم يزل إلى أن توفي فعهد إلى أخيه أتريب قبل وفاته فأقام بها مده فعهد إلى ابنه أحراباً وبعده ابنه

---

(١) البرابي: بيوت الحكمة.

كلكلي، وكان له حكمة ومعرفة، وكان عنده هرمس الحكيم، وأقام ثلاثمائة سنة، ولم يخلف ذكرا فعهد إلى أخيه خرفا.

* وكان غائباً فخرج إلى ناحية الفيوم متنزها فأرسل الله عليه صاعقه فأحرقته وسمي ذلك المكان المحرقة، وهي بقعه معروفه إلى الآن وملك بعده ابنه لوطيس، وهو الذي وهب هاجر لسارة زوج إبراهيم عليه السلام، وكان مسكنه الفرما لأن لوطيس هذا كان له أولاد كثيرة منهم: تنيس، ودمياط، وتونه، ودهقلا، ودفرا، وسندفا، وسهود، وكان أحسنهم.

* ثم وقع المقت في أولاده فماتوا عن آخرهم، ولم يبق له ولد ذكر فأدركته الوفاة فعهد إلى ابنته حوريا فملكت من بعده.

* وكان لها رأي وتدبير فأكثرت العمارة في أرض مصر وسمع بها الجبابرة وطمعوا فيها.

* وكان الملك الذي قد قهر الملوك في ذلك الوقت يقال له حبير المؤتفكي، وكان معه جيش عظيم من الجبابرة يقطع الواحد منهم من الجبل قطعه، ويقلبها كيف يشاء.

* فلما بلغ حوريا قدومه شاورت أهل مملكتها فأمروا عنه، فلما علمت ذلك دبرت حيلة تقتله من غير حرب فأحضرت قهرمانة لها ذات مكر وخداع وقررت معها المكر لحبير المؤتكفي وسيرت مع القهرمانة / ١١٣/ هدايا وتحف وذخائر وسألته قبولها منها وسألته أن يتزوج بها إذ هي محتاجة إلى زوج يدير ملكها، ولم تجد في ملوك الأرض كُفواً لها غيره، ووصفت له جمالها وحزمها فمال إليها ورغب فيها، وأثنى رأيه عن القتال، وأجابها إلى ذلك.

* فرجعت القهرمانة إليها، وأعلمتها برغبته فيها فسيرت إليه هدايا ثانيه وتحف وذخائر وسألته أن يرفع قدرها عند الملوك، ويعلي شأنها، ويعظم مجدها بأن يبني لها مدينه على ساحل البحر يظهر فيها حكمته وقوته، ويقيم فيها أعلاما تبقى على مر

الزمان وتكون هذه المدينة مهرا لها وحظها منها، وإن هو لم يجبها إلى سواها نسبه الملوك إلى العجز، والتقصير، فلما سمع ذلك أدركته أريحتهُ، وأجابها إلى ذلك.

* ثم أمر أصحابه أن يتفرقوا في النواحي ذات المعادن لقطع الصخور، والعمد ودخل حبير إلى مصر في خاصة من قومه ودولته فدلوه على الإسكندرية، فلما وصل إليها رأى فيها آثاراً شداداً، وما عمل فيها من العجائب، وما أسس فيها من الحكمة فأعجبه رأي حوريا واسترجح عقلها وجدد فيها آثاراً وجعل فيها اثني عشر فرسخاً، وأقام لبنائها ألف ألف صانع، وأنفق عليها خزائنه.

* وظفر فيها بكنز لشداد بن عاد فأخذه، وأنفقه عليها وجعل المدينة ثلاث طبقات بعضها فوق بعض وجعل فيها قناطر تصل إلى البحر، فلما كانت الإسكندرية أرسل إلى حورياً، وأعلمها بذلك فأظهرت البشرى، وأكرمت الرسل وجعلت ذلك عيداً بمصر أظهرت فيه الزينة، وأرسلت تخبره في قدومها عليه، أو قدمت عليها فأمرها أن تقدم عليه فأمرت بحمل خزائنها وفرشها وحليتها، وكان أول الدواب في الإسكندرية وآخرهم في منف، وهي مصر.

* وسارت عقيب ذلك، فلما قاربت الإسكندرية أُمرت بالقباب فضربت، والذبائح ذبحت وجعلته عرساً، وأولت واجتمع إليها قوم حبير فجلسوا للأكل، والشرب / ١١٤ / ، وكانت قد اتخذت لهم طعاماً مسموماً وشراباً مسموماً، فلما كان الليل تقدمت القهرمانة ومعها خلع مسمومة مطيبه فألبستها للملك وطيبته فسقط قواه وانقطع بعض أعضائه، فلما جن الليل هلك لوقته وقومه عن آخرهم فدخلت عليه حورياً وقهرمانتها فلطمت وجهه.

* وقالت رَبّ جَبار عنيد فاتخذها الناس مثلاً، وكان لما أيس من نفسه سألها أن يكتب سيرته على العمودين القائمين على السرطانات النحاس بناحية البحر ففعلت، ومات حبير في تلك الليلة.

❖ ❖ ❖

[الفصل التاسع
في العجائب، والطرف، والهدايا، والتحف]

* ولما ملك سليمان بن داود عليه السلام الإسكندرية جدد بها مجلس السوارى واتخذه معبدا كالمسجد، وكان من البنيان العجيب الذي يدل على فخامة شأن بانيه، ولما ملك ذو القرنين جددها، وكانت ثلاث مدائن بعضها إلى جنب بعض فمنها مدينة المنارة واسمها مته ومدينه تسمى نفيطه، والإسكندرية، وعلى كل مدينه سور وسرر يجمع الجميع.

* وكان الإسكندر ذو القرنين قد رخمها برخام أبيض، وكان لباس أهلها السواد، والزرقة، وأقامت سبعين سنة لا يدخلها أحد إلا على عينيه خرقه سوداء، ولا يوقد فيها سراج.

* وجاء الإسلام، وهي على هذه الهيئة ودخلها عمرو بن العاص قبل فتحها، وهي بيد المقوقس، والروم فأعجبه ما رأى من بنائها وحسن عمارتها، فلما فتح عمر بن الخطاب الشام حرضه عمرو بن العاص على فتح مصر، والإسكندرية، وذكر له كثرة أموال أهلها ورفاهتهم وعجزهم عن القتال، ولم يزل به حتى عقد له أربعة آلاف فارس، وأمره بالمسير، وأن يعمل بعد مسيره بها كاتبه فسار عمرو بن العاص بين المسلمين فبعد ذلك أثنى رأي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عن ذلك وخاف على المسلمين فكتب إلى عمرو بن العاص كتابا وسيره مع رجل من المسلمين فأدرك عمرو بن العاص في الطريق فخاف عمرو أن يكون عمر أمر برده فلم يفتح الكتاب / ١١٥/ رغبة في الديار المصرية، ولم يزل يشاغل الرسول، ويجد في السير حتى وصل إلى العريش فسأل عنها فقيل له هذه من حدود مصر ففتح الكتاب فقرأه على المسلمين فوجد فيه إذا أدركك كتابي قبل أن تدخل الحدود مصر فارجع بالمسلمين.

* وإن أدركك، وقد دخلت حدود مصر فامض أمرك واستعنْ بالله، فقال عمرو بن العاص لمن معه من المسلمين ألستم تعلمون أن هذه من حدود مصر قالو بلى قال فسيروا على بركه الله تعالى فساروا حتى بلغوا بلبيس، وكان أهل الفرما قد خرجوا إلى عمرو بن العاص وصاروا له أعوانا برأي أسقف يقال له أبو ميامين فانه كان قد قال للقبط بعدما بلغه قدوم العرب على الديار المصرية أُخرجوا لهم وابتغوا رضاهم فان الروم، والقبط ما بقي لهم ملك في هذه الأرض وخرج القبط من القصر لقتال عمرو بن العاص اعني قصر الشمع فلم يثبتوا وانهزموا ورجعوا إلى خندقهم وتحصنوا بالقصر فحاصرهم المسلمون.

* وكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يعلمه عجز القبط عن القتال، ويعرفه أنهم التجؤوا إلى قصر الشمع وغلقوا الأبواب، ووقع بهم الحصار فسر بذلك، وأمده بأربعة آلاف رجل، وأربعه رجال.

* فأما الأربعة رجال فهم الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود الكندي وعبادة بن الصامت ومسلمه بن مخلد.

* وكتب إليه إني قد مددتك بأربعة آلاف رجل، ولا تغلب اثنا عشر ألفاً من قله، فلما قدم هذا الجيش على عمرو بن العاص أَلَحَّ بالحصار على قصر الشمع، فلما أبطأ عليه الفتح قال الزبير بن العوام: أنا أهب نفسي لله تعالى فوضع سلماً إلى جانب القصر من ناحية سوق الحمام، وأمرهم إذا سمعوا تكبيرا فليبادروا إليه فما شعروا إلا، والزبير يكبر على رأس القصر فأجابه المسلمون، والتكبير بالتهليل من خارج القصر فلم يشكوا النصارى / ١١٦/ إن المسلمون أخذوا المدينة فانهزموا من جهة البحر.

* ودخل المسلمون المدينة، وكان المقوقس يومئذ نازلاً بالجيزة، وكان بمصر رجل يقال له الأعوج لتدبير الحروب فهرب بمن معه وركب السفينة، والتجؤوا إلى الجزيرة إلى المقوقس وجرت بينهم مراسلات ليس هذا موضع ذكرها كان آخرها الصلح على إن القبط بمصر يؤدون الجزية.

* وكان جملة من وافق المقوقس على ذلك ستة آلاف رجل فأوجب عمرو بن العاص عليهم الجزية وترك النساء، والصبيان وفرض لكل رجل من المسلمين دينار وعمامة وبرنسا وخفين وشرط عليهم أن يقيموا له الجسرين، ويقيموا الأسواق من مصر إلى الإسكندرية وذلك في سنه تسع عشره من الهجرة.

* وامتنع الروم أن يفعلوا ما فعل المقوقس، والقبط، والتجؤوا إلى الإسكندرية وقاتلوا عمرو بن العاص، ومن معه من المسلمين، ووقعت بينهم وقائع وملاحم، وأقاموا على ذلك تسعه عشر وفتحها المسلمون بعد هذه المدة يوم الجمعة مستهل المحرم سنه عشرين من الهجرة.

* وكانت رؤوس القبط تمد عسكر المسلمين بالزاد، والعلوفات في هذا الحصار.

* وقيل إن المسلمين ظهروا عليهم وانهزم من كان فيها من الروم إلى البر، والبحر فولى عمرو بن العاص رجلاً من المسلمين على الإسكندرية وضم إليها ألفاً من المسلمين وخرج عمرو طالباً من هرب من الروم في البحر.

* وأما أهل الإسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين لما توجه عمرو في طلب المنهزمين إلا من هرب وملوكها فبلغ عمرو بن العاص الخبر فَكَرَّ راجعاً فقاتلهم ثانية وفتحها، وأقام بها.

* وبلغ عمر بن الخطاب الخبر فكتب إلى عمرو بن العاص يستضعف رأيه، ويأمره أن لا يخرج منها، ولم يقتل في حصار الإسكندرية من المسلمين غير اثنين وعشرين رجلا من المسلمين قبل فتحها.

* وكتب عمرو بن العاص / ١١٧/ إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): أما بعد يا أمير المؤمنين إني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني وجدت فيها أربعة آلاف دار بأربعة آلاف حمام، وأربعين ألف يهودي فأوجبت عليهم الجزية واثني عشر ألف بقال يبيعون البقل، والديار المصرية هي منزل الفراعنة.

* ومدينة منف التي تقدم ذكرها هي منزل فرعون ودار ملكه، وكان قد جعل له

سبعين باباً من الحديد وجعل حيطان المدينة من الحديد، والنحاس.

* وكانت الأنهار تجري من تحت سريره، وكان فيها أربعة ملاعب، وكان قيمة خراجها في كل سنه في فلك الأيام ستة وتسعين ألف ألف دينار وسبعمائة ألف وثلاثة وعشرون ألف وثمانية وسبعة وثلاثين ديناراً.

* وحمل منها موسى بن عيسى في دوله بني العباس ألف ألف ومائه ألف وثمانين ألف دينار.

* وأما عجائبها فمنارة الإسكندرية، وهي مبنية على سرطان زجاج، وكان أول سورها، وكان بأعلاها مرآة يجلس الجالس تحتها فيرى من القسطنطينية، والأهرام وهما بنيان على فرسخين من مدينه الفسطاط، وهو فسطاط عمرو بن العاص لا يعرف على وجه الأرض بناءً أعلى منهما طول كل واحد أربعمائة ذراع وشكلهما التربيع.

* ولا يزالان في الهوى ينخرطان ضوبريا حتى يرجع دورهما مثل أعلاها خمسة أشبار في خمسه أشبار، وليس بين صفايح حجارتها ملاط، وهو اللصاق مثل الجبس، وما أشبه ذلك.

* وكل حجر منها يكون ما بين عشرة أذرع إلى خمسة أذرع قد هندمت هنداما وصحت تصحيحا لا تدخل الحجرين وعجب ما فيها أن حجارتها منقولة من مسافة أربعين فرسخاً وحدودها أعني أرض مصر من العريش إلى أُسوان وعرضها من بُرقة إلى أيلة، وهي مسيرة أربعين ليلة طولاً، وأربعين ليلة عرضاً، وما زاد على ذلك فليس من أرض /١١٨/ مصر.

* وكان أهلها أسعد أهل الأرض، وأكثر مالاً من أهل سائر الأقاليم ولهم أخبار كثيرة منها أن عبد الله بن عبد الملك بن مروان وكان، والياً على مصر في خلافه أخيه الوليد بن عبد الملك سنه تسعين، وكان رجل من أهل وسيم من القبط في ضيعه من أعمال الجزيرة دعاه إلى وليمة عرس كان قد عزم عليه وسأله أن يخرج إليه إلى مصر ليشرفه بحضوره إلى الوليمة فأجابه إلى ذلك وقرر معه اليوم الذي يحضر فيه إليه فحمل

إليه الرجل القبطي مائه ألف دينار مصريه.

* وقال يا سيدي خذ هذه نصيب الجواري، والخدم من الوليمة إذ لم يمكنهم الحضور وسأله أن يقبلها منه وانصرف القبطي وعزل عبد الله بن عبد الملك بابن شريك العبسي يوم الاثنين لثلاث عشر ليله من ربيع الأول من السنة المذكورة قبل أن يحضر وليمة القبطي.

* وخرج من مصر، ولم يذكر القبطي المال لأحد، ولا التفت إليه، ولا طلبه، ولا لحقه ولو طلبه منه لأعاده له واعتده القبطي من جمله ما صرفه على الوليمة في ذلك الوقت.

* ومنها عمرو بن العاص لما فتح قصر الشمع وصالح جريس المعروف بالمقوقس على ما ذكر أولا سألوه القبط أن يأذن لهم في عمل طعام المسلمين فأجابهم إلى ذلك ففعلوا، فلما فرغوا من ذلك سألهم عمرو كم أنفقتم على طعامكم فقالوا عشرين ألف دينار مصريه قال لا حاجة لنا في طعامكم كلوه وادفعوا لنا ثمنه عشرين ألف دينار ففعلوا ذلك، ولم يشق عليهم.

* وعبد العزيز ابن مروان كان، والياً على الديار المصرية فخرج من مصر في سنة أربع وتسعين فاعترضه رجل من أهل بهيت من القبط وسأله أن ينزل عنده، فقال عبد العزيز، ويحك إن معي جماعه وتلحقك في هذا موته عظيمة، فقال إن هذا لا يعظم علي، ولولا احتمالي لذلك ما سألتك فيه.

* ولم يزل حتى نزل / ١١٩/ عنده، وكان عبد العزيز في أربعه آلاف رجل فأقام عنده ثلاثة أيام يقدم إليهم الأطعمة، والطُّرف، والحلوان في كل ثلاث مرات، ولا يعيد شيئا من الطعام الأول في الثاني، ثم أذن عبد العزيز لأصحابه في المسير فسأله القبطي أن يمهل لحظه ففعل، فإذا أربعه رجال يحملون قفة عظيمة لها أربعه أودان فيها خشبتان معترضتان على كتف كل رجل منهم طرف الخشبة وعليها منديل، والرجل القبطي صحبتهم فوضعوها بين يدي عبد العزيز.

* وقال يا سيدي قسم هذه بين قومك فكشفها عبد العزيز، فإذا هي مملوءة دنانير فامتنع عبد العزيز من ذلك، وقال اجعل هذه خراج زراعتك وبلغ الخبر إلى أم القبطي، وكانت عجوزاً ضعيفة فأقبلت إلى عبد العزيز، وهي ترتعش وقالت أيها الأمير أنت جئتنا لتشرفنا، أو جئت لتشمت بنا أعداءنا فتبسم الأمير عبد العزيز، وقال بل جئتكم لأشرفكم، وأسر بكم أحبابكم قالت فلم ترد علينا هديتنا قال أكره أن أحملكم مؤونة، وأكلفكم مشقة فقالت، والله لا يضرنا إن أخذته، ولا ينفعنا إن تركته فبحق معبودك ودينك إلا أمرت بقسمته بين أصحابك ففعل وقسم ذلك حفنا بيديه فعم الجميع الذي معه.

* وعبد الله بن المأمون لما قدم إلى مصر في سنه ثمان عشره ومائتين أراد أن يخرج من مصر إلى دير النجوم، وكان يبني له في كل ضيعه دكه، فإذا نزل الضيعة نزل على تلك الدكة ونزل العسكر، والقواد، والوزراء، والقضاء أسفل منه، فلما وصل إلى كوده ومسبس مر بالضيعة المعروفة بطاء النمل فحظر له أن لا ينزل بها.

* وكان بها امرأة عجوز قبطية اسمها ماريا فبلغها إعراض المأمون عن الضيعة فخرجت العجوز مسرعه وتعرضت إليه في الطريق وكلمته، فقال لبعض التراجمه ما تقول هذه العجوز؟ قال يا أمير المؤمنين إنها تقول إنك نزلت بكل ضيعه، وإنك /١٢٠/ لم تنزل بهذه الضيعة فالآن تغيرنا بنو القبط إلى آخر الزمان فأعجب المأمون عقلها وعدل بدابته إلى الدكة التي ينزل عليها ونزل العسكر معه، ثم رجعت ماريه إلى ولدها فأخبرته فخرج إلى وكيل مطبخ وسأله ما يحتاج المطبخ من الخراف، والكباش، والدجاج، والأبقار، والشمع، والطيب، والسكر، واللوز.

* ولم يخرج القبطي من المعسكر حتى انتسخ جميع ما يحتاج إليه مطابخ الوزراء، والأمراء، والقضاء، والخدم وخاص العسكر وعامته من الأطعمة، والحلوات، والحطب، والعلوفات.

* وكان يومئذ مع المأمون ولده أبا العباس، وأخاه أبا إسحق، وأولاد أخيه الواثق بالله، والمتوكل على الله، وأحمد بن أبي داوود قاضي القضاة ببغداد، ويحيى بن أكثم، ومع كل واحد من هؤلاء الحفده، والخدم، والغلمان، وأتباعهم، وأتباع أتباعهم مالا يحصى عدده فاحضر جميع ما يحتاجوه، ووسع عليهم، وأقاموا عنده ثلاثة أيام، ولم يحتج أحد منهم إلى شيء قل، ولا جل.

* وَحَدَّثَ من شاهد هذه الوليمة أنه رأى على سماط المأمون خاصة في تلك الدعوة ثلاثة آلاف دجاجه فائقة خارجاً عن الطعام، والحلاوات، والخراف، فلما عزم المأمون على الرحيل خرجت إليه مارية تشكره على تشريفه لها وتودعه ومعها عشر وصايف أبكار مولدات مجملات بأنواع الثياب، والمصاغ ومعهن عشره صواني عليهن أغطية الديباج ومناديل الذهب فرآها المأمون من بعيد، فقال لمن حضره هذه ماريه قد جاءت إلينا بطرايف الريف من الكعك، والجبن، والصير.

* ولقد أحسنت إذا جاءت به في آخر الوقت بعد الاهتمام بنا، فلما أحضرت الصواني بين يدي المأمون كشفها فوجدها / ١٢١/ عشرين ألف دينار فنظر في كل صينية ألفين من نقد واحد فاستعظم المأمون ذلك واستكثره، وقال للترجمان قل لها هل وجدت كنزاً؟ فتكلم الترجمان معها في ذلك فأخذت قطعه من الطين ورفعتها بيدها وتكلمت مع الترجمان، فقال المأمون ما تقول؟ قال الترجمان إنها تقول إن هذا ليس من كنز، وإنما هو من الطين، ومن عدل أمير المؤمنين يعني من الزراعة، ثم قالت، والله إن عندنا من هذا شيء كثير، وإن شئت فهو لك فأعجب أمير المؤمنين ذلك منها وقبل هديتها وشكر صنعها، وأمر لها بضياع إنعاماً عليها فامتنعت وقالت نحن أغنياء بما عندنا فأمر لها بمائتي فدان تكون لها رزقه في ضيعتها، وكتب لها توقيعا بخطه فقبلتها منه وبنت عليها قنطره، وهي إلى الآن تعرف بأرض ماريه في طاه النمل، وأثر القنطرة باق إلى اليوم، وكانت هذه الوليمة من الولائم المشهورة.

* ووجد جوهر غلام المفرحين ملك مصر ودخل إليها في سنه ثمان وخمسين وثلاثمائة في دار رجل يقال له محرز الأزعلي، وكان قد توفى حشريا، وكان الإخشيدية صاريين كأعظم ما يكون من الصواري وهما عود صفي، وهو أغلى من العود الغماري فحملها جوهر إلى المعز، ووجد فيها دهليز هذا الرجل مصطبة فيها خزانه وجد فيها سبعمائة نرجسية فضة وذهب خارجاً عما وجده من الذخائر.

* ولما دخل جوهر غلام الغزالي مصر في تلك السنة، وكان معه ألفا وخمسمائة بغل محمله مالا قال.

* وأما بدر المستنصر أمير الجيوش في سنه اثنين وستين، وأربعمائة في أيام المستنصر عز السكر وغلا فلم يوجد وبلغ حمل القنطار إلى خمسين دينارا، وكان في خزانته ثلاث مائه قنطار ودخل شهر رمضان فسألوه أن يبيعه، أو بعضه / ١٢٢/ فامتنع من ذلك، وقال نحن محتاجون إليه في الصيام فاستعمل ذلك جميعه في مطبخه في شهر رمضان فكانت القيمة عنه خمسه عشر دينار، ووجد لقائد القواد حسين بن جوهر حين قتل الحاكم ذخائر لا تنحصر منها ستة آلاف مبطنة حرير من سائر الأنواع من الديباج، والصامت، والعبادي، ووجد له في خزانه الطيب سبعه أزيار صيني مملوءة كافور قيصوري قديم وزن كل قطعه ثلاث مثاقيل.

* ووجد لأحمد بن عبد العزيز الركابي حين قبض عليه ألف ثوب ديباج وثلاثمائة سفط من دق تنيس ودمياط سوى المال الصامت في إحدى وعشرين صندوقا مملوءاً.

* وأما السيدة ست النصر أخت الإمام الحاكم لما توفيت وجد في تركتها ثمانية آلاف جاريه منهن ثيبات ألف وخمسمائة، والبقية أبكار، ووجد في تركتها إثنان وثلاثين زير صيني مملوءة مِسْكًا مسحوقاً.

* وأما المال، والتحف فما قدر يحيط به علما لكثرته.

* وعبده أختها بنت المعز لما توفيت، وكان مولدها بجيزة مصر عند قدوم أبيها إلى الديار المصرية تركت ألف وثلاثمائة قطره محرقه بالذهب وزن كل قطره عشره آلاف

درهم وثلاثين ألف شقه حرير اصفر من لون واحد وجوهر وزمرد كان كيله إردبا، ووجد في ذخائرها طشت، وإبريق من البلور ومدهن من الياقوت الأحمر وزنه سبعه وعشرين مثقالاً لا يعرف أحد له قيمة.

* وسيد الوزراء محمد اليازوري[1] أفرط في استحضار الطشت، والإبريق بحضره المستنصر عليه وجده عنده فأخذه، وأقامت عنده هذه السيدة عمرها لا تأكل إلا من غزل يدها.

* وأحمد بن طولون رحمه الله كان منفقه على الجامع المعروف به مائه ألف وعشرين ألف دينار، وأنشأه في / ١٢٣/ تسع وخمسين ومائتين وحبس عليه سوق الرقيق وغيره، وكان منفقه على البيمارستان ستون ألف دينار، ولم يكن بمصر مارستا قبله، وكان منفقه على المصنع ببركة الحبش مائة ألف، وأربعة، وأربعين ألف دينار، وكان منفقه على سور جزيرة مصر ثمانين ألف دينار، وعلى الصدقات في كل شهر ثلاثة وعشرون ألف دينار.

* ومات أحمد بن طولون وترك أربعة وعشرين ألف مملوك وخمسه، وأربعين ألف عبداً أسود حراً أصحاب جرايات مسترزقة وسبعة آلاف وثلاثمائة حصاناً وثلاثين من خيل الميدان المستعدة للحروب، والمهمات وستمائة بغلة ملونات، وألفي ومائه جمل وترك من المال مالاً يحصى لأنه كان عهد إلى ابنه أبي الجيش، وكان ذا هِمة وهيبة وتدبير وسياسة وقام مقام أبيه، وأكثر، وكان له هيبة في قلوب الناس، وكان يركب في موكب عظيم، وكان يمشي في مقدمه موكبه ألف عبد اسود كل واحد منهم أطول ما يكون من الرجال عليهم أقبية مضربه سود.

* ومع كل واحد منهم ترس حديد ومزراق حديد، وكل واحد منهم يقتنص الأسود هذا خارجا عن الغلمان الروم، والترك مع ما يضاف إليه من الأمراء، والقواد، والوزراء، وأصحاب الدواوين، والطردين، وكان يرغب في الركوب على هذه الهيئة

---

(١) في الأصل: النازودي، لا معنى لها، واليازوري نسبة لبلد يازور بفلسطين.

ليزداد هيبة في قلوب الناس وجدد في الميدان الذي كان فيه أبوه منذ أنشأه، وهو قريب من الجامع أشياء لم يسمع بمثلها حمل إليه الأشجار من سائر أقطار الأرض حتى من خراسان وزرع فيه ميادين الزعفران وسائر الرياحين وزرعها سطورا فِقَراً.

* وكان لها قوم مؤجلون بها بأيديهم مقاريض يصلحون بها ما يبرز من الورق عند الاعتدال واتخذ في هذا البستان فستقية كأكبر ما يكون من البرك ملأها بالزيتون، وكان /١٢٤/ يفرش عليها فراشاً ناعماً من الأدم ينفخ فيها فتمتلىء ريحاً تربط أفواهها وتطرح على ذلك الزيبق فيجلس، وينام قد اتخذ قوائم الشجر جميعها من النحاس الأصفر الأندلسي المنقوش المغشى بالذهب الغالي.

* وكان إذا طلعت الشمس لم يستطع الناظر ينظر إلى تلك القوائم لقوه وهجها، وكان يسحق المسك، والكافور، وينثر على تلك الرياحين، والأزهار، والزعفران.

* وكان يحب الجياد من الخيل واتخذ منها ما ضاقت به الاصطبلات بمصر حتى اتخذ لها اصطبلات بالجزيرة، وكان عنده خيل لها انساب كأنساب الناس مثبوتة في الدواوين مستخدمون برسم ذلك، وهو ديوان الكراع لهم على ذلك جوامك وجرايات.

* وقد ذكرت من هذا المعنى ما يغني عن التطويل وصفحت عن أمور كثيرة منها الهدايا، والتحف.

* ذكر الواقدي في أخبار فتح السند قال إن عبد الله بن شداد العبسي كان عاملاً لمعاوية بن أبي سفيان على بلاد السند، وأنه غزا بلاد القيقاز، وأصاب منها مغانم كثيرة، وإن ملك القيقاز صالحة على أداءه الجزية، ويحمل إليه هدايا لم يُرَ مثلها، ولا تنحصر قيمتها.

* وكان أعجب ما فيها قطعه مرآه ذكر أهل العلم إن الله تعالى أنزلها على آدم لما كثر ولده وانتشر في الأرض فكان ينظر فيها فيرى من يريد منهم على الحال الذي هو فيه من خير وشر.

* وبهذا حدث عيسى بن عمر قال حدثني عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قال لما أهبط الله آدم من الجنة رفعه على جبل أبي قبيس، وأزوى الأرض له، وقال له هذه لك يا آدم ولولدك قال يا رب فكيف أعلم ما فيها فجعل له النجوم، وقال إذا رأيت النجوم نجم كذا وكذا / ١٢٥/ فكان يعلم بذلك، ثم اشتد عليه ذلك فشكا إلى ربه فأنزل الله عليه مرآة من السماء، ولما مات آدم عليه السلام عمد شيطان يقال له فقطرش فكسرها.

* وبنى عليها مدينه بالمشرق يقال لها حانوت، فلما كان أيام سليمان بن داود عليه السلام كان علمها عنده، فقال للبحر ائتوني بها فقالوا أخذها فقطرش فسأله عنها، فقال هي تحت أركان حانوت، فقال ائتني بها قال، ومن يقدر على هدم تلك الأركان قال أنت تهدمها فمضى هدمها، وأتاه بها فكان سليمان عليه السلام يشد بعضها إلى بعض، وينظر فيها فيرى جميع ما يريده.

* ولما مات سليمان عليه السلام وقعت الشياطين عليها فذهبت وبقي منها قطعه توارى بها بنو إسرائيل وصارت هذه القطعة إلى خزائن بني أميه، فلما استخلف أبو جعفر المنصور كان علمها عنده فسأل عنها إلى أن أخذها فيما أخذوه لبني أمية، ثم فقدت من خزائن بني العباس.

* ولما فتح طارق بلاد الأندلس سنه ثلاث وتسعين في خلافه الوليد بن عبد الملك وجد بمدينة طليطلة بيتين مغلقين ففتح أحدهما فوجد فيه أربعة وعشرين تاجاً لم يعلم أحد قيمة كل تاج منها، وعلى كل تاج اسم صاحبه وكم ملك من ملك من السنين.

* ووجد فيه مائدة سليمان ابن داود عليه السلام فحملها إلى الوليد بن عبد الملك، ووجدوا على البيت الآخر أربعة وعشرين قُفلا فسأل عنه هل فيه مال فقيل له لا، فقال ما بال هذه الأقفال فقالوا لا نعلم إلا أن هذه المدينة قد بنيت وتداولتها ملوك الروم، وكان كل ملك منهم يجعل عليه قفلا من غير أن يفتحه، ولا يعلم ما فيه، وكانت هذه سُنَّةً لهم واستسنوها وتوارثوها.

* فلما كان في هذه السنة عزم الملك على / ١٢٦/ فتحه وتوهم إن فيه مالا فاجتمعت إليه الشمامسة، والأساقفة، ووجوه الناس، وأهل دولته وعظموا عليه ذلك وسألوه أن يفعل ما فعله من كان قبله من الملوك فلم يصغ لهم فقالوا له أي شيء خطر لك إن فيه من المال فنحن نعطيك الذي يخطر ببالك، ولا تفتحه فعصاهم، وأمر بفتحه ففتح البيت، فإذا فيه تصاوير العرب، وهم على خيولهم بعمائمهم وسيوفهم ونبالهم وثيابهم مكتوب في صدر البيت بالخط الرومي متى فتح هذا البيت ملكت العرب هذه المدينة.

* وهذه الأرض في السنة التي يفتح فيها هذا البيت ملكت العرب هذه المدينة وهذه الأرض في السنة التي يفتح فيها هذا البيت، وكان الأمر على ما ذكر فأمر طارق بدواة وقرطاس، وكتب إلى الوليد بن عبد الملك بصورة الأمر وبعث إليه بالهدايا، والتيجان، والمائدة التي تقدم ذكرها.

* وقومت المائدة بين يدي الوليد بن عبد الملك فكانت القيمة عنها مائتي إلف دينار، والله أعلم.

* ولما فتح سعد مدائن كسرى بعث إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بخمس ما وحده من إلفي فقسمه بين الناس بالمدينة، فأخذ على بن أبي طالب (رضي الله عنه) حُصة من ذلك، وكانت قطفه من بساط كسرى باعها بعشرين ألف دينار، وكان طول البساط ستون ذراعا وعرضه كذلك، وكان مفصلاً بالدر، والزبرجد، والياقوت وقضبان الذهب، وكان كالأرض المزروعة المقبلة النبات، وكان يفرش له في الشتاء فيقوم مقام الرياحين، والإزهار، ويشربون عليه الشراب[1].

* ولما قدم سيف كسرى ومنطقته إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) رأى منها ما هاله قال إن قوما أدوا مثل هذا لذوي أمانة، فقال له علي (رضي الله عنه) الله عنه انك عففت فعففت الناس.

---

(١) لها ذكر في الكامل في التاريخ وقصتها مبثوتة فيه وذكر أن أبعادها أربعين ذراعاً في أربعين ذراعاً.

* وأصاب رجل من النخع، وقيل إنه ضرار بن الخطاب درفشكابيان وتفسيره / ١٢٧/ بالعربي راية، وهي راية كانت لكسرى فقومت بثلاثين ألف دينار، وكان قيمتها ألف ألف دينار.

* وعبد الله بن زياد لما فتح بخارى في سنة أربع وخمسين ودخلها المسلمون فردة الخف مع ما أخذوه فكانت القيمة عنها خاصة مائتى ألف درهم.

* وأهدى للوليد بن يزيد بن عبد الملك من بعض الجهات جفنة بلور أعظم ما يكون من الجفان قيل انه وضعها بين يديه ليلة وملاها ماء وطلع القمر فلم يرى القمر من نور تلك الجفنة، فقال أين القمر فقالوا له لم يظهر شعاعه من نور الجفنة.

* واشترى المهدي فَصّاً بمائتى ألف درهم وسبعون ألف درهم، وكان هذا الفص يعرف بالجبل وعمل عليه خاتما فرأى يوماً ولده هارون الرشيد يكرر النظر إليه فوهبه له، فلما توفي المهدي عهد إلى ولده موسى الهادي نَفَلَ له إنَّ الخاتم الذي كان لأمير المؤمنين قد وهبه لأخيك هارون، ولا يصلح أن يكون إلا في يدك كانت الخليفة، وهو أمير فوجه إليه يطلبه منه.

* وكان الرسول إليه يحيى بن خالد فامتنع الرشيد من دفعه فألح عليه أخوه الهادي في انتزاعه، فلما عاد إليه يحيى بن خالد في طلبه واعلمه بتغير أخيه عليه بسببه أخذه هارون في يده وركب مع خالد يريد قصر أخيه، فلما توسط الجسر انتزعه من إصبعه، وقال يا أبا الفضل قال نعم قال هذا الخاتم انظر إليه قال ما علمت انه هو فرمى به في الدجلة ورجع من طريقه، وقال أعلمه بما رأيت فمضى يحيى بن خالد واعلم الهادي بما وقع فغضب غضباً شديداً، وأمر بالغواصين، وأهل البحر فغاصوا واجتهدوا في استخراجه فلم يقدروا عليه، وأقام الهادي بعد ذلك أربع سنين واشهر ومات.

* وكان قد عهد إلى أخيه / ١٢٨/ الرشيد فمر يوما من الأيام بالجسر ومعه يحيى بن خالد، فقال يا أبا الفضل أتذكر اليوم الذي ألقيت فيه الخاتم في هذا المكان قال نعم يا أمير المؤمنين قال، والله لم أنس، وقد قذفت به هكذا، ثم نزع خاتما كان بيده من فضه

قيمته ربع دينار وقذف به في ذلك المكان بعينه، ثم قال لأحد غلمانه أنزل إليه لعلك تجده يعني الخاتم الفضة الذي رماه في تلك الساعة فنزل الغلام وغطس فطلع بالخاتم الأول، فلما رآه هو، ومن معه ذهلوا فكانت أعجوبة عظيمة.



الفصل العاشر

في أخبار ساقها التصنيف ونوادر جرها التأليف

* لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دعا بنيه، وكانوا أحد عشر ابنا، وكان عنده مسلمه ابن عبد الملك فأحضر عمر بن عبد العزيز إحدى عشر دينارا ونصف دينار فأمر أن يكفن، ويشترى له مكانا يدفن فيه بخمسه دنانير، ويقسم الباقي على بنيه.

* وقال يا بني: والله ليس لي مال فأوص لكم به ولكنني ما تركت لأحد منكم تبعه، ولا أخذ ثأر، ولا عرض، ولا ذم، والله الخليفة عليكم، فقال مسلمه: وما ذلك يا أمير المؤمنين وخير من ذلك قال: وما هو قال تأخذ من مالي ثلاثمائة ألف دينار فتقسمها بينهم كما تريد، فقال عمر، أو خير من ذلك قال، وما هو يا أمير المؤمنين قال ترد المال الذي أخذته فانه ليس بملكك قال فبكى مسلمه عند ذلك.

* وقيل ما رُؤي أحد من أولاد عمر بن عبد العزيز إلا، وهو غني، ولقد شوهد احدهم، وقد جهز في سبيل الله مائه فارس على مائه فرس من خالص ماله.

* ولما حضرت مسلمه بن عبد الملك الوفاة، وقيل هشام بن عبد الملك ترك إحدى عشر ابنا أصاب كل واحد منهم تركه ألف ألف دينار، ويقال إنه ما رُؤي أحد منهم إلا، وهو فقير.

* ولقد / ١٢٩/ شوهد بعضهم، وهو يوقد في أتون الحمام بعد ذلك بسبع سنين.

* عبد الله بن مروان، وهو آخر ملوك بني أمية قال لما زال ملكنا وملكت بنو العباس هربت إلى أرض النوبة مع جمع من أصحابي فسمع بي ملك النوبة فجاء بي إلى المكان الذي كنت فيه فجلس على الغرض، ولم يجلس على فراشي فقلت له هلا تجلس على فراشنا أيها الملك فانه لم يعتد لك هاهنا فراش، فقال لا قلت، ولم قال لأني ملك وحقيق على الملك أن يتواضع لذا رفعه الله، ثم قال أخبرني لم شربتم الخمور، وهي محرمه

عليكم، ولم وطئتم الزرع بدوابكم، والفساد محرم عليكم، ولم استعملتم الذهب، والفضة، وهي محرمة عليكم، ولم لبستم الحرير.

* وقد نهيتم عنه على لسان نبيكم؟ قال عبد الله فقلت له إنا لما قَلَّت أنصارنا استعنا بقوم أعاجم دخلوا ديننا فعلوا ما ذكره الملك على عزه منا قال الملك ساعة، ثم رفع رأسه، وقال ليس الأمر على ما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم وظلمتم إذ ملكتم فسلبكم الله العز بذنوبكم ونقمه الله لم تبلغ مداها فيكم، ولا وصلت غايتها، وأنا أخاف أن يحل عليكم عذاب من الله فيصيبني معكم، والضيافة ثلاثة أيام فتقودوا فيها ما شئتم وارتحلوا فو الله ما تقيموا عندي بعدها .

باب في ذكر الصالحين وأخبار المتقين (رضي الله عنه) أجمعين

* قال العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد المقرئ لما وقع هذا الكتاب وجدته عشره أبواب فأحببت أن أختمه بحكايات الصالحين، والسلف الماضيين رحمه الله عليهم أجمعين قيل لأبي يزيد البسطامي هل بلغت قاف قال بلغت جبل قاف وجبل هار وجبل عين وهذه جبال محيطه بالأرضين السفلى حول كل أرض ثانية وثالثة ورابعة جبل محيط بها كحيطه جبل قاف بهذه أرض الدنيا، وهو أصغر الجبال وهذه الأرض أصغر / ١٣٠/ الأرضين وهو جبل من زمردة خضراء والسماء مقببةٌ عليه ويقال بينه وبين السماء إلا أربعون فرسخاً وإن خضرة السماء من خضرته، وإلا فهي بيضاء كالفضة ولكن لشدة صفائها وتلؤلؤها واخضرار الجبل وقربه منها وتلألأت واخضرت وكان أبا محمد يخبر أنه صعد على جبل قاف ورأى سفينة نوح وهي مطروحة فوقه وقيل كان ولي لله للبصرة يرفع رجليه فيضعها على قاف فالدنيا خطوة مؤمن على الحقيقة.

* وذكر أن ولياً من أولياء الله تعالى احتاج إلى مصباح فرفع يديه إلى القمر فأخذ منه نوراً في فتيلة كانت معه.

* وبعضهم كوشف بالهلال في أوله فرآه مستديراً كما يراه ليلة أربع عشر فإنه رفع عنه الغطاء المحجوب.

* وبعضهم رأى الشمس نصف الليل وهي تشير في أرض الفلك لتقطعه ليلاً طولاً فسبحان الملك القدير.

* وقال العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه): كنت مواخياً لأبي لهب مصافياً له، فلما مات وأخبر الله عز وجل عنه ما أخبر أغمني همهُ وحزنت عليه فسألت الله عز وجل حولاً كاملاً أن يرينه في المنام فرأيته جمرة تلتهب ناراً فسألته عن حاله فقال: صرفت إلى النار في العذاب لا يخفف عني إلا ليلة الأثنين دون كل الليالي والأيام فإنه يرفع عني العذاب، قلت كيف ذلك قال محمد (صلى الله عليه وسلم) في تلك الليلة فجائتني أميمة فبشرتني في ولادة آمنة إياه ففرحت بمولده وأعتقت جارية لي فرحاً مني به فأتابني الله عز وجل بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة أثنين لأجله (صلى الله عليه وسلم) .

* وحسبنا الله ونعم الوكيل، تحريراً في أربعة وعشرين من ربيع الأول سنة سبع وثمانين ومئة وألف / ١٣١/ .





فهرس الأعلام والأماكن والألفاظ الحضارية والمصطلحات وأسماء الكتب...

فهرس القوافي

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الفصل العاشر :

